قسطاني بن محمد

واحة غريس والاستعمار

آليات التحول وأشكال المقاومة



واحة غريس والاستعمار:
آليات التحول وأشكال المقاومة

قسطاني بن محمد

واحة غريس والاستعمار:
آليات التحول وأشكال المقاومة

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية

سلسلة دراسات وأبحاث رقم 70

العنوان

واحة غريس والاستعمار: آليات التحول وأشكال المقاومة

المؤلف

قسطاني بن محمد

الناشر

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تصميم الغلاف

وحدة النشر

الإيداع القانوني

2018MO2641

ردمك

978-9954-28-255-7

الطبع : دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط.

تقديم

يتناول كتاب «واحة غريس والاستعمار: آليات التحول وأشكال المقاومة» للأستاذ بن محمد قسطاني علاقة إيمازيغن الجنوب الشرقي المغربي بالتغلغل الاستعماري.

يبرز الكاتب، وهو أستاذ جامعي في علم الاجتماع بجامعة مولاي اسماعيل بمكناس، التحولات الاجتماعية والثقافية والمجالية التي خلخل بها الاستعمار هياكل المجتمع الأمازيغي الغريسي ويدقق كذلك في المقاومة اليومية للساكنة ضد الاحتلال.

يعد هذا البحث استمرارية للدراسة التي سبق للكاتب نشرها بالمعهد سنة 2005 والتي قام فيها بتوصيف واحة غريس قبل الاستعمار. بينما يهتم في هذا الإصدار الجديد بتحليل ظاهرة الاستعمار من خلال تِبْيَانِ الآليات التي يُفكِّك بها المستعمِر البنية الثقافية والاجتماعية والمجالية للقبيلة.

ينتقل بنا الكاتب في تحليله من هدم المؤسسات السياسية للقبيلة إلى إعادة هندسة المجال من خلال خلق الفيلاج الذي مكّن المستعمر الفرنسي من تكسير إغرم (القصر) وهو الفضاء المجالي التقليدي للواحة. كما أن إحداث الطريق الأطلسي سيغير العلاقات الاقتصادية التي كانت تعتمد على حراسة القوافل الآتية من العمق القاري والصحراوي وسيربط، من موقع تبعي، الجنوب الشرقي للمغرب بالمدن الكبرى الساحلية المصدرة إلى فرنسا. يوضح كذلك الكاتب كيف همَّش المستعمرون الفرنسيون المؤسسة الديمقراطية لـجماعت من خلال إحداث آيت المجلس وتقوية مؤسسة القايد. بالإضافة إلى الهيمنة الثقافية للمدرسة التي أثرت على جسد ونفسية الأطفال كما أنها همشت المبادئ التقليدية للمجتمع.

الأهم في الكتاب أن صاحبه لا يكتفي بتقديم واحة غريس كمجتمع يخضع بإذعان لهيمنة المستعمر بل يحلل آليات المقاومة التي تم ابتكارها من طرف الأهالي.

يستعمل الكاتب لذلك منهجية في البحث لا تعتمد فقط على الوثيقة المكتوبة بل تتجاوزها لترصد المتن الشفهي الذي تتجلى فيه مقاومة إيمازيغن بواحة غريس.

يقدم لنا الباحث بذلك قراءة للتاريخ من الأسفل حيث يميط اللثام على مقاومة المهمَّشين بدلا من التاريخ الرسمي الوطني الذي يركز على النخب الحضرية أو التاريخ الكولونيالي الذي يتحدث عن الدور الذي لعبته فرنسا في تحديث البلاد.

محمد أوبنعل، باحث في علم الإجتماع

بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

إلى روح أبي

هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراة نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة محمد الخامس، الرباط، أمام لجنة علمية تتكون من الأستاذة رحمة بورقية مشرفة ومقررة والأستاذ محمد جسوس رئيسا والأساتذة: حسن رشيق والمختار الهراس أعضاء.

مقدمة عامة

هل مازال هناك ما يغري التفكير في الواحات وفي الاستعمار؟ هل هناك مبرر للعودة إلى الماضي الزمني وإلى الجنوب المكاني، في الوقت الذي تتجه فيه الأنظار إلى المستقبل زمنا وإلى الشمال جهة. وأليس من الأفيد أن يعالج الموضوع مؤرخ أو أنثربولوجي في أحسن الأحوال؟ كيف يمكن للسوسيولوجيا أن تعالج موضوعا مرتبطا بالوثيقة والذاكرة والشهادة؟

ثم ألم تجر مياه كثيرة تحت قنطرة الميدان وتطور البحث السوسيولوجي كونيا ومحليا، مياه ربما أمكن أن نتحدث معها عن تجاوز البراديكمات المتحكمة في إنجاز هذا البحث في زمنه المعلوم.

إنه السياق الذي كان وراء ترددي الكبير في نشر هذا العمل، و هو سياق تاريخي اجتماعي يستحق بمفرده أن يكون موضوع بحث في سوسيولوجيا سوسيولوجيا المغرب.

إلا أن مشاورات كثيرة مع الزملاء والباحثين، وكذلك الطلبة، فرض علي العودة إلى أوراق قديمة لأنزع عنها الغبار، لتكون فيها وحولها عبرة استئناس الباحثين الشباب ببحث أكاديمي مر في غرابل التأطير والمناقشة. مبرر بيداغوجي ومنهجي للعودة إلى بحث نواقصه كثيرة وتحتاج إلى عودات ومراجعات قمنا ببعضها والبعض لازال ينتظر.

I - أوليات منهجية

ليست الواحات موضوعا غرائبيا أو رومانسيا، بل هي مجال تجمعات بشرية واقعية تخلق متاعبها كما تخلقها جميع التجمعات البشرية. كما أن الاستعمار ليس موضوعا فجائعيا يستحضر في مناسبات ذكر المقاومات والشهداء، بل هو لحظة إنسانية وإن تبدت عسكرية وسياسية وإدارية واقتصادية، فهي أيضا نفسية وثقافية واجتماعية.

من الناحية المنهجية والنظرية، هي مناسبة جيدة لفهم وتحليل الاتصال بين الشعوب وأشكال المثاقفة. اتصال عنيف، لكنه خاص، وهي الخصوصية التي تنزع التعميمات التبسيطية، انطلاقا من الأولية السوسيولوجية في فرادة الفاعل الاجتماعي، بل بوعي أثر العام على الخاص لإمكان قيام أي سوسيولوجيا.

إن جدل الخاص والعام كان الخيط الناظم الذي قاد خطاطات البحث كله. الاستعمار كظاهرة إنسانية عامة، وفي علاقته بالمجال المدروس تتبدى التلوينات الإنسانية لممارسة العنف ولمقاوماته.

لقاء ثقافات «بدون آلات» بتعبير جورج بالانديي مع ثقافات القوة والمال والتوسع تعتبر مختبرا سوسيولوجيا، ومناسبة أنثربولوجية جيدة لفهم «طبيعة» الانسان، ليس في العنف فحسب، بل في إدراك العالم والفعل فيه أثناء الحالة الكولونيالية المستنفرة للطاقات والإدراكات والقيم.

وهي الحالة التي لاتبعد كثيرا عن حالة العولمة كاستعمار جديد، بآليات أقوى وبرغبة جامحة في التوسع واستنزاف الخيرات والتحكم في السياسات المحلية بالأقمار الاصطناعية والتنصت شبه الكلي على البشرية برمتها.

هي مساهمة إذا لفهم ما جرى مساعدة لفهم ما يجري وما سيجري في نهر التغير الاجتماعي المحلي والشامل.

تبقى إشارة تقنية تفيد القارئ وهي أن هذا الكتاب ليس الأطروحة كلها، بل هو عمل أخرج ليكون سهل التناول والقراءة دون إثقاله بالوثائق وغير ذلك من المستندات المفيدة علميا وأكاديميا، والتي يمكن الرجوع إليها بالنسبة للباحث، لكنها غير ذات جدوى بالنسبة للقارئ العام وهو المستهدف هنا.

يتكون البحث من فصول أربعة ومقدمة عامة وخاتمة، ومعجم بالمصطلحات المحلية. في الفصل الأول حاولنا فهم التقليد والتغير في مجال الاستعمار، في الفصل الثاني تحولات المجال والسلطة، في الفصل الثالث، حاولنا فهم التغير على مستوى الأسرة والمعاش والقضاء والمدرسة.

في الفصل الرابع، قمنا بفحص المتن الشفوي ووعي الذات بنفسها عبر الشعر والسيرة والرواية، وكيفية تمثلها لظاهرة الاستعمار، وذلك من أجل فهم أشكال المقاومة.

في الخاتمة فحصنا كنتائج، آليات التحول وآليات المقاومة، ثم طرحنا أهمية ربط المجتمع الواحي المحلي بالعام الوطني، وطرحنا تساؤلات حول إمكانية التحدث عن تفاعل يمكن أن ينتج خلاسية ما.

ماذا فعلته السياسة الأهلية بواحة غريس؟

ماذا صنعت هذه السياسة، بكل ماتملكه من نفوذ ووسائل وآليات غير معهودة، بالقبيلة التي ألفت تكرار نفسها؟ ماذا فعلت بالمعاش وأنظمة الاجتماع والسلط؟ هل فككت شبكة القيم التقليدية من الولاء للعشيرة والالتفاف حول العلاقات المبنية حول العار وأعراف ترسخت منذ قرون؟

وكيف تعاملت الساكنة مع هذا الحدث الجديد؟ كيف كانت أشكال المقاومة؟ هل كانت بالسلاح البحت أم رافقتها أشكال أخرى أقل عنفا لكن أكثر عمقا ودلالة؟

تلك هي الأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها، والتي يمكن إجمالها في مجالات وقضايا أساسية هي:

التحولات التي مست المجال والسلطة؛

والانتظام المورفولوجي والمعاش؛

ثم القيم والتوجهات.

نحن إذا بصدد مساهمة تريد الفهم، انطلاقا من الاقتناع الإبستمولوجي بإمكانية القيام بذلك، وهي محاولة في التاريخ الاجتماعي لواحة مغربية أثناء الاستعمار، وذلك استكمالا للبحث المونوغرافي الذي قمنا به في كتاب الواحات المغربية قبل الاستعمار، غريس نموذجا. ذلك البحث الذي توقفت أوصافه وتحرياته ومعايناته عند دخول المستعمر.

بذلك يأتي هذا العمل، من هذه الزاوية، تتويجا وتتمة للعمل الأول، إلا أن المقاربة لم تكن بالشكل الذي كانت عليه آنذاك، كما أن الأهداف ليست هي نفس الأهداف.

فإذا كان العمل الأول تعريفيا بالأساس، وطغى عليه البحث في الخصائص، فإن عملنا اليوم هدفه الرئيس هو وضع الأصبع على التحولات، أنواعها وأشكالها، المجالات التي طالتها والآليات التي استخدمت في ذلك، ثم محاولة إبراز أشكال المقاومة.

هو مختبر صغير إذا، يمكن أن يضيء بعض خبايا صدمة البنيات التقليدية بالاستعمار وشعاراته، من عصرنة وعقلنة وترشيد.

هو مختبر استخدمت فيه تقنيات ملائمة، مثل الملاحظة لما هو قابل لها، مثل انتشار المعمار الكولونيالي، ومن تحليل مضمون الخطابات الكولونيالية والمحلية، والمقابلة بالنسبة للذين عاينوا الحقبة. وقد عملنا أيضا، على تنويع المصادر، من أرشيفات الشؤون الأهلية، والخزانة العامة، ووثائق محلية مكتوبة وشفهية.

أما راهنية الموضوع فيمكن تلمسها في عودة الإشكاليات البي- إثنية، وتحديات العولمة وصراع الثقافات، والمشاكل الاجتماعية والهوياتية التي تترتب عن الهجرة والبعد الإكوثقافي للتحولات الاجتماعية.

هو تقرير إذا عن لحظة تاريخية حاسمة.

يعتبر بحثنا للدراسات العليا، الواحات المغربية قبل الاستعمار، غريس نموذجا، المصدر الأول الذي نبعت منه فكرة إتمام الوصف والتحليل لمسار التاريخ الاجتماعي لغريس، وذلك بإضافة الحقبة الكولونيالية التي أوقفنا عندها المدى الزمني بالنسبة للبحث الأول. وذلك لما تكتسيه هذه الحقبة من أهمية سوسيولوجية بالنسبة لفهم كثير من وقائع الواحة الاجتماعية الحالية منها. فانفجار القصر «إغرم» مثلا، وتوطين القبيلة وتحييد الزاوية، وخلخلة التراتبية الإثنية التقليدية... كلها وقائع سوسيولوجية محورية لايمكن تفسيرها ولا فهمها ولا وصفها حتى، دون الرجوع إلى السياسة الأهلية واستراتجيتها العامة.

من هنا ضرورة تجاوز الملاحظة المتسرعة المبنية على المرئي فقط le visible وكذلك ضرورة تجاوز القراءة الإيكولوجية لدونية الواحات، الأمر الذي يهون من العوامل التاريخية والفعل الكولونيالي خاصة.

لقد اخترنا الحقبة الكولونيالية، نظرا للرجة الحضارية _ التاريخية التي أحدثها التدخل الاستعماري في بنية القبيلة، ووظيفتها الاجتماعية. كما أن كل المخبرين يميزون وبوضوح تام، بين المراحل الثلاث: «السيبا» والاستعمار والاستقلال. كما ساعد على الاختيار أيضا، من الناحية المنهجية، توفر معطيات لابأس بها من مصادر ومراجع ووثائق وأرشيفات.

نادرة جدا تلك البحوث التي اتخذت الواحة والاستعمار موضوعا لها، لكن البحوث حول الواحة لم تخل من الالتفات إلى هذه التيمة ولو في صفحات جد محدودة. سواء منها المونوغرافيات التاريخية أو البحوث الاجتماعية أو المقالات.

ركزت الأعمال التي اشتغلت على الواحات بصفة عامة وعلى الحقبة الكولونيالية بصفة خاصة على قضايا أساسية لعل أهمها :

1 - المجال، بمعناه الضيق، الموقع والإطار الإكولوجي.

2 - السلطة والقايد : (تفرع السلطة ramification du pouvoir، نزع امتلاكها، dépossession du pouvoir، التوطين localisation، مركزة الأمن)

3 - تعامل السلطات الأهلية مع الأعراف.

4 - نمط الإنتاج وترسيخ التقليد archaisation: (التراتبية، الإثنية، الملكية، الماء)

وسنحاول هنا التعرض لهذه القضايا.

1 - المجال، الموقع والإطار الإكولوجي:

لعب الموقع الجغرافي دوما دورا أساسيا في تحديد السياسة الأهلية التي يجب اتخاذها من طرف السلطات الكولونيالية تجاه البلدة وساكنتها، وذلك منذ الحملة العسكرية نفسها.

لا تملك واحة غريس القيمة المجالية - الموقعية لواحة «فكيك» مثلا، وذلك كملتقى للطرق، ومن ثمة التهديد القديم ل«فكيك» منذ الأتراك، وكذلك تهديد الفرنسيين لها فيما بعد، نظرا لاعتبارهم لها عقبة نحو الجنوب[1]، ومن ثمة الاهتمام الامبرالي المبكر ب«فكيك» على عكس غريس. لقد كتب ديلليثي ومنذ سنة 1867م: «في رأيي إن العملية جيدة، وستكون مثمرة من حيث النتائج، ويمكن أن نقفل الثورات لسنوات.» [2]

منذ سنة 1869، تقع أول معركة بين الفكيكيين والفرنسيين، في حين تأخر اهتمام فرنسا بالواحات جنوب الأطلسي عامة وبغريس خاصة كآخر نقطة للتهدئة، ولم يدخلها الاستعمار إلا سنة 1931، بل كانت معركة بادو، غشت 1933 آخر مقاومة مسلحة كبيرة في المغرب كله.

وقد شكل الإهتمام الموقعي المبكر بفكيك من طرف السلطات الكولونيالية هما استراتيجيا كان وراء تدبير الساكنة لأمر التعامل مع المستعمر عرفيا، الأمر الذي لم يحصل في غريس، حيث لم نعثر على أي اهتمام للأعراف بالمسألة وبت في الأمر تلقائيا إما بالقتل أو نهب الممتلكات.

1- بنعلي محمد بوزيان-. واحة فكيك، تاريخ وأعلام، 1987. مطبعة النجاح الجديدة. ص، 53.

2- نفس المرجع، نفس الصفحة.

فرض الموقع نفسه أيضا على تعامل الفرنسيين مع أيت «باعمران» و«بلاد تكنة»، فإذا اعتبرت واحة فكيك ملتقى طرق الشمال بالجنوب شرقا، فبلاد تكنة موقع الوسط أيضا بين الشمال والجنوب لكنه غربا، ومن ثمة الدور التجاري المهم الذي لعبته الكونفدرالية، الأمر الذي يفسر الإحتكاك القديم بين قبائل الصحراء والأوروبيين. بل وكانت هناك منافسة قوية، وحتى اشتباكات بينهما حول تجارة العبيد خصوصا.[1] كما كانت للكونفدرالية رغبة أكيدة في تأسيس موانيء...[2]

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لقبائل الصحراء، فإن قبائل غريس على عكس ذلك عاشت قبيل الاستعمار عزلة شبه تامة، ولم يتم هنا أي اتصال بين الساكنة والعالم الخارجي، الأوروبي منه على الخصوص، إلا عبر حالات وتجارب فريدة ويتيمة. الأمر الذي يفسر استمرار الطابع القبلي بغريس حتى التهديد الأوروبي، في حين اضمحل فيه هذا الطابع في تكنة منذ 1850. وإذا كان من المسلم به كون الإحتكاك بالأجنبي يسرع التحولات فهمنا الطابع المحافظ لواحتنا حتى الآن.

لم يشبه واحتنا من ناحية الموقع وبعد العزلة، في الدراسات والأبحاث الإجتماعية، سوى «أيت حديدو أسيف ملول»[3]، بل أكثر من ذلك نحن في مجال ثقافي واحد، بل وفي نفس اللف، «أيت يافلمان». إلا أنه ورغم كل ذلك فهناك فروقات جوهرية سنحيل إليها في حينها.

كما تبرز أهمية الموقع مرة أخرى عندما نفحص علاقة الواحات الصحراوية الجزائرية بالاستعمار، حيث فهم الفرنسيون إمكانية استغلالها كمنطلق نحو المغرب الذي لازال لم يستعمر بعد آنذاك. في هذا السياق يرى ندير معروف أن السياسة الأهلية تركت للأعيان المحليين استقلالا في تدبير النزاعات حول العقار والأحوال الشخصية

1- ناعمي مصطفى -. الصحراء من خلال بلاد تكنة ، تاريخ العلاقات التجارية والسياسية. منشورات عكاظ. الرباط. 1988 ص، 159.

2- ناعمي مصطفى.- **الصحراء من خلال بلاد تكنة**، نفس المرجع، ص، 279.

3- Kasriel, M. - *Libres femmes du Haut Atlas? Dynamique d’une micro- société au Maroc*. L’Harmattan. Paris. 1989.

وكذلك حق الماء، ومن ثمة التحكم في التراتبية المحلية كلها[1]، الأمر الذي يذكرنا هنا في غريس بمؤسسة «أيت المجلس» المستحدثة لفض النزاعات وتحل محل الجماعة التقليدية المنتخبة.

2 - السلطة والقايد:

ليس هناك أشخاص ذوي نفوذ مطلق في غريس، سواء على الصعيد السياسي كما كان الأمر بالنسبة لإمارة تازروالت، أم على الصعيد التجاري كما كان الأمر بالنسبة للشيخ بيروك «العاهل المستقل لوادي نون».[2] نعم طفت على السطح هنا في غريس أسماء مثل القائد الحسني «أبن يحيى»، لكنه لم يكن في واقع الأمر سوى شيخ قبيلة باركه المخزن ليصبح قائدا كبيرا، لكن خلافه مع السلطان مولاي الحسن أنهى مجده بصورة شبه مأساوية ...

أما بالنسبة لعسو باسلام، صاحب ملحمة بوكافر، فإنه لم يكن يملك أية سلطة مطلقة. أما ما دون أولئك فتبقى غريس مطبوعة بمساواتية ملفتة، لايفسرها من بين ما يفسرها، سوى التراتبية المطلقة على الصعيد الإثني. فرغم وجود استغلال فاحش ل«لخماسين» من طرف المالكين، هناك في صف الأسياد مساواتية شبه تامة في تولية مهام السلطة، وهي تلك المساواتية التي لاحظتها الأدبيات الكولونيالية، بل والتي أربكت السلطات الأهلية لأنها وببساطة لم تجد مخاطبا واحدا وأوحدا يستطيع تحمل مسؤولية الحوار كما هو الأمر عليه بالنسبة للقياد الكبار في الأطلس الأعلى الغربي.

هذه ملاحظة أساسية بالنسبة لنظام السلطة الذي وجده المستعمر في واحتنا، وقد عملت السلطات الأهلية على مركزة السلطة أكثر تفاديا للسلوك الفوضوي للغريسي بتعبير المستعمر، عكس ما وقع في الواحات الجزائرية: «تيديكلت» و«كورارة» و«توات» حيث لاحظ ندير معروف عمل السلطات الكولونيالية على تفرع La ramification الحكم، وأصبحت سلطة القايد أقل امتدادا، لكن أكثر تنفيذية وسلطة وإجرائية.[3] أما

1- Marouf, N. - *Lecture de l’espace oasien*. Paris. Sindbad, 1980. P, 86

2- ناعمي، مصطفى. - **الصحراء من خلال بلاد تكنة**. مرجع مذكور. ص، 178.

3- Marouf, N. - *Lecture de l’espace oasien, op-cit* p, 86.

الجماعات، يضيف معروف، فإنها لم تعد منتخبة، لقد أصبحت جماعات القايد، يتم تعيينها من طرف السلطات الكولونيالية تبعا لمعايير التعاون والعمالة أو النفوذ. وهي صفات كلها تذكرنا بما حدث بغريس.

3 - تعامل السلطات الأهلية مع الأعراف:

من القضايا الأساسية التي اهتم بها المستعمر، كيفية التعامل مع الأعراف، والقضاء بصفة عامة، و المسؤولية بصفة خاصة، وقد اهتدت هذه السلطات إلى ازدواجية التعامل مع ركن قضائي- عرفي أساسي هو «الضامن» أو المقسم، الذي تم إبقاؤه شكلا وتحييده مضمونا.. وقد حاولت الباحثة ميشال كاسرييل تفسير ذلك بإرجاعه إلى عوامل مثل اللغة كوسيلة احتكار للسلطة والقضاء من طرف الفرنسيين، إضافة إلى عوامل أخرى لخصتها في تنظيم المجال واحتكار وسائل الإتصال، الهاتف خصوصا، ثم الطرق والشغل[4].

إن الإبقاء على المقسم على مستوى «أيت عشرة»، (الفخذ أو الإخس)، وتحييده على مستوى «أيت اربعين»، (القبيلة)، لم يكن إجراءا تقنيا بسيطا، بل هو مؤشر تحويل عميق في البنية القبلية كلها نحو التوطين من جهة ومركزة القضاء والأمن من جهة ثانية، العاملان الذين جعلا المسؤولية الجماعية غير ذي جدوى، لكن دون الوصول إلى مأسسة المسؤولية الفردية.

لقد كانت السياسة الأهلية في هذه النقطة بالذات مرتبكة، فهي تريد التحويل لكن في حدود الإبقاء على الطابع العام للعلاقات الاجتماعية، ومن ثمة الإبقاء على المقسمين الضامنين، لكن كخبراء وليس كمنفذين للأحكام كما كان عليه الأمر سابقا في الأعراف.

وإذا كانت المقارنة التشبيهية بين غريس و«أسيف ملول» جد مغرية حيث الإنتماء إلى مجال ثقافي واحد ولف واحد أيت يافلمان، وحيث العزلة تشكل القاع المشترك، فإنه ورغم كل ذلك، لايمكن القفز على فرق أساسي يتجلى في التراتبية الإقتصادية -الإثنية كظاهرة جد ملفتة في الواحات، وكذلك عدم التجانس الإثني، على عكس الوحدة الإثنية الحديدوية والتوحد شبه التام في أسلوب ومستوى العيش، ومن هنا أهمية

4- Kasriel , M. - *Libres femmes du Haut-Atlas, op - cit*, p, 165.

التحولات في غريس أثناء الحقبة الكولونيالية، حيث يمكن التحدث عما يمكن الإصطلاح عليه بالعوامل غير الاقتصادية في التحول الاجتماعي - الاقتصادي، من استعداد الإثنيات المضطهدة، مثلا للإندماج أكثر في الأشكال التنظيمية الجديدة للشغل، الأجرة خصوصا، وكذلك قابليتها للهجرة ورغبتها الشديدة في تكوين ملكيات عقارية، وعلى عكس ذلك استعداد الإثنيات المستفيدة من التراتبية التقليدية للتمدرس الكولونيالي. لقد عمل اللاتجانس الإثني في الواحات على خلط الأوراق وإعادة ترتيبها من جديد.

4 - نمط الإنتاج:

ليست الواحات بوجه العموم مجالا للاستعمار الاقتصادي، إلا أنه ورغم ذلك يرى ندير معروف أن الحقبة الكولونيالية أبرزت وبشكل عنيف الآليات التي نضد بها الإنتاج الرأسمالي مع الخراجي في الواحات الجزائرية[1]. لكنه يردف فيقول بأنه عكس ما فعله الاستعمار في الشمال، لم يرافق ذلك أي تغيير في نمط تنظيم أو تدبير الملكية التقليدية في الواحات، وبذلك لم تحدث تلك التحويلات الكبرى في الملكية التي مست الشمال، كما لم تكن هناك استثمارات محلية يمكن أن تنتج تغيرات عميقة للعلاقات الإنتاجية، ومن ثمة العلاقات الاجتماعية للأهالي. وقد استخرج من كل ذلك المفهوم الذي يمكن اعتباره مفتاحا بالنسبة لتقريره كله حول الحقبة، ترسيخ التقليد archaïsation[2] الذي عملت السلطات الاستعمارية على ممارسته على واحات توات وكورارة وتديكلت، أما الفعل الكولونيالي البارز والوحيد فيبقى هو استبدال الحيازة الترابية بالضرائب[3]. ورغم كل ما سبق يقر معروف أنه وقع تحول عميق في المجتمع المدروس، رغم ما قد يبدو من استمرارية في الشكل.[4]

لقد أجمعت الدراسات على أن الحقبة الكولونياية في الواحات أحدثت تحولات عميقة، كما كان الأمر بالنسبة للمغرب كله، فرغم استمرار التقليد في كثير من الأوجه

1- Marouf , N.- *Lecture de l'espace oasien, op - cit* ; p, 86.
2- Marouf, N. *lecture de l'espace oasien, Ibid* ,p, 85.
3- *Ibidem*, même page.
4- *Ibidem*, même page.

الاجتماعية، تبقى التغيرات مست جل الميادين المادية والديموغرافية والسوسيو ثقافية والسلوكية.[1]

لقد اهتمت الدراسات المفحوصة بجل مناحي الحياة الاجتماعية، إلا أن البعد الذي لم تنتبه إليه هذه البحوث بصفة عامة، هو البعد الثقافي، وهو الذي يمثل وبقوة جيوب مقاومة التحولات، والذي سنحاول أن نعيره اهتماما أكبر في بحثنا.

نحن هنا بصدد أركيولوجيا فهم الماضي انطلاقا من أولية استمراره في الحاضر، مع الإنتباه إلى خصوصيات محلية قد تثير إشكالات غريبة عن مجالات أخرى، مثل حدود التفكير في الاستعمار الداخلي واستعمار الذات، انطلاقا من الطبيعة شبه المغلقة للطبقات الاجتماعية-الإثنية في الواحة.

1- Benchrifa, A. et Popp, H. - *L'Oasis de Figuig, persistance et Changement*, Passau, Rabat, 1992, p. 34.

II - المعرفة الكولونيالية حول غريس والتخوم

1 - سياقها العام

ليس موضوعنا هنا بحثا في السوسيولوجيا الكولونيالية، تيماتها المركزية، مقارباتها ومناهجها، إشكالاتها. بقدر ما هو محاولة استجلاء وتحليل عيني لطبيعة معرفة خاصة وظفها المشروع الكولونيالي في فهم الميدان المراد التحكم فيه، تمهيدا لغرس "التحضير والتحديث" الاستعماريين انطلاقا من أولية الاستعمار العلمي الذي اقتنع به كاستراتيجية ضرورية لضمان أقل الخسائر مقارنة مع التجربة الجزائرية.

لقد سبق وأن وصفنا السوسيولوجيا الكولونيالية في رسالتنا للدبلوم بملمحين مركزيين هما العلمية والسياسية،[1] ونريد أن نضيف هنا ملمحا مضمرا ثالثا، ربما شكل بؤرة المعرفة الكولونيالية كلها، وهو المجالية. وليس في الأمر انحرافا بروكروستريا، رغم ما قد يبدو، بل هي حصيلة الغوص والحفر المنهجي في الحقل الإبستيمي الكولونيالي الذي تبدى لنا حقلا متمفصلا حول القوة والسلطة والحكم والعنف والتوطين، رغم ما قد يفصح عنه ظاهر الخطاب.

إن تركيز السوسيولوجيا الكولونيالية على الطبيعة العنيفة للمجتمع المغربي، قبائل ومخزنا، وعلى توصيف بناه بالعتاقة والفوضى من جهة القبائل والإستبداد والبطش من جهة المخزن، ثم محاولة مفهمة مؤسسات مثل «الحماية» و«العناية» و«الزطاطة» و«تايسا» وصياغتها كطبيعة شاملة وعامة ومزمنة، إن التركيز ذاك، لم يكن سوى رغبة في تعويم الوقائع الاجتماعية حتى يتساوى الكل مع الكل، تبريرا لعنف أكبر ولكن أعم وأكثر جدوى نحو حماية أكثر ضمانة وطمأنة، ومن ثمة شعار التهدئة الذي رفعه المشروع الاستعماري كله.

ذلك هو السياق المبرر لإضافة خاصية المجالية كبعد استراتيجي متعدد الإهتمامات للمعرفة الكولونيالية.

1- أنظر كتابنا: **الواحات المغربية قبل اللاستعمار**، غريس نموذجا، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2005

لقد تراوح العلم الكولونيالي بين قراءات توصيفية استكشافية للتضاريس والطوبوغرافيا، ذات صبغة عسكرية مخابراتية، ومحاولة فهم الرهانات وموازين القوى المحلية وكذلك الزعامات النافذة، مرورا بالإهتمام الشديد والدقيق بالعادات والطقوس والحياة اليومية والزي والثقافة وغير ذلك من المؤشرات والرموز، دون القفز على دراسات تقنية تمهد للإستنزاف.

لقد فتحت هزيمتا إسلي (1844) وتطوان (1859-1860) العالم المغربي لمعرفة فرنسية أكثر "مطابقة" ووضوحا. تجاوزا للطابع الإثنوغرافي الغرائبي الذي طبع التمثل الغربي برمته لبلاد المغرب، وذلك منذ القرنين 17 و18 والنصف الأول للقرن 19. تلك الغرائبية التي ليست سوى استمرار التصور الروماني القديم وتخييل الحروب الصليبية والجهاد البحري، وما ترتب عن ذلك، ليس من مآسي فحسب، بل ومن أخطاء في التعرف على الآخر من مثل اعتبار المغاربة أتراكا، وتمثلهم جهلة تتفشى فيهم الرشوة والأتوات وخاضعين لحكم طاغية مستبد[1] رغم تصورهم وتخيلهم شعبا يملك ثروات وخيرات طبيعية نفيسة -أسطورة بساتين هيسبيريد-. إن المجتمع المغربي في التمثل الغربي قبل السوسيولوجيا الكولونيالية، مجتمع تخلف تام وعنف وقسوة عامين وانغلاق مطلق والتفاف حول الذات وإدارة الظهر للآخر الأجنبي.

لقد وجدت المعرفة الكولونيالية ضالتها في مؤسسة الحماية التقليدية. والتي وإن كانت واقعا وفعلا بنيويا لا يمكن إنكاره فإن الصياغة والمفهمة الكولونيالية لها جعلت منها قنطرة وممرا متماسكا نحو شرعنة التدخل والتهدئة والإحتلال. يقول ل. مارتان:

«أما فيما يخص حماية الأهالي، بمعنى وجود فئة استثنائية خارج تجاوزات سلطات البلاد، فإنه لا يمكن أن نقول في المغرب أن الحماية تلك ليست سوى نتيجة لتواجد الأوروبيين. إن الفوضى والإعتباطية السائدين في هذا البلد بشكل مزمن، يدفعان الرعايا نحو الدفاع عن أنفسهم ضد السلطات، ولعل أحسن وسيلة للإنفلات من قبضة المخزن هي الحصول على دعم أشخاص مؤثرين يملكون ما يكفي من القوة يمكنهم هم

1- Lebel, R.- *Le Maroc chez les auteurs anglais*, Paris, 1939, p. 130.

أنفسهم من التملص من التجاوزات التي تعتبر العامة ضحية لها».[1]

انطلاقا من هذا التصور العام، تشكلت مجموعة من التمثلات والإسقاطات والقياسات والمقارنات والترميقات وضعت المجتمع المغربي في حالة المجتمع الأوروبي الفيودالي الوسيط، وذلك من أجل الدعوة إلى تحديثه ليتجاوز حالة الظلم المعمم المزمن.

ولن يتم ذلك سوى بحماية تامة شاملة وكاملة عادلة تظل الجميع بأبوية راشدة تكفل مجتمعا قاصرا ويتيما لابد من حمايته حتى ضد نفسه.

ذلك هو السياق العام الذي تستقي منه المعرفة الكولونيالية مرجعيتها. ومنه تغترف مفاهيمها وتنسج رؤاها. ونريد أن نؤكد هنا على أن المعرفة المبحوثة مخصوصة بواحة غريس وبعض المجال المتاخم.

2- الخصائص والأشكال والبعد المجالي للمعرفة الكولونيالية:

اتسمت المعرفة الكولونيالية حول غريس بسمات محورية يمكن إجمالها بالتمظهر بالحياد والموضوعية من خلال كتابة باردة تقريرية وتوصيفية جافة غالبا، وربما مالت إلى إبداء بعض التعاطف مع الأهالي أحيانا، ليس كمجال وكجسد يهيأ للفعل فيه واستثماره وفق المشروع الكولونيالي فحسب، بل كمجال يجب تهدئته ثم «تحضيره» و«تحديثه». وقد يحدث أن ينفلت من التقريرية بعض الحماس الإحتفالي، قد يصل إلى الإفتتان أحيانا، ليس كخدعة واعية، وإنما كمكر البعد الإنساني لكل كاتب مهما كان مشروعه مغرضا.

يمكن إجمال المعرفة الكولونيالية حول غريس في خمسة أشكال وهي:

المعرفة الإستكشافية؛

والآداب العسكرية؛

ثم المعرفة القانونية - العرفية – القضائية؛

وبعد ذلك المعرفة التقنية؛

1- Martin, L. - Le Régime de la protection au Maroc. In *Archives Marocaines*. Tome 15, p. 4 -

وأخيرا المعرفة الثقافية.

3- أنواع المعرفة الكولونيالية:

أ - المعرفة الإستكشافية:

- شارل دو فوكو

مر شارل دوفوكو بغريس، كمستكشف سنة 1883. ولا نريد هنا أن نورد أوصافه وأحاديثه حول المنطقة، بقدر ما نريد أن نستكشف الكيفية التي وثق بها رحلته والزوايا الاجتماعية التي استطاع أن ينيرها، وأن يسلط الضوء عليها حتى نستطيع استجلاء طابع ومقصود الرحلة.

يمكن أن نقرر أن الرحلة كانت مجالية بالمعنى الإستراتيجي الذي عزلناه هنا للمجال، حيث قسم المستكشف اهتمامه إلى مجالين منهجيين، فهو إما يصف المجال الترابي وطوبوغرافيته خصوصا، حيث يروي وبالتفاصيل المملة شكل التضاريس من جبال وهضاب وسهول ووديان وحدود القبائل واللفوف، بل ويجسد أوصافه برسوم وخطاطات أحيانا، وإن كانت بدائية فهي جد دقيقة[1]. أما عندما لا يصف، فإنه يروي الأحداث الواقعة للتو، أو التي ستحدث في الغد القريب، وأحسن مثال على ذلك ترقبه لمعركة «تلوين»، والتي ستقع فعلا بعد مروره من غريس نحو قصر السوق،[2] (الراشيدية الآن). إن الأوصاف والروايات تلك لتحمل الرحلة كلها صبغة عسكرية مجالية تنبيء بقرب قدوم العمليات الكولونيالية الميدانية، والتي من المفروض أن تعرف وأن تفهم الميدان الترابي جيدا، وكذلك موازين القوى القبلية ورهاناتها حتى لا تفاجأ. وكل ذلك، وكما مر، وفق تعليمات الاستعمار العلمي.

لقد حفلت الرحلة كلها، كما أشرنا، بأوصاف مجالية طبيعية إيكولوجية، من تضاريس وبعض أوصاف النبات وغيرها. كما حفلت بأوصاف سياسية من النظر في طبيعة الساكنة وعددها وإثنياتها، وهل هي مستقرة أم بدوية. ثم مواقع القصور وأشكالها

1- De Foucauld, C. *Reconnaissance au Maroc. 1883-1884*. Ed. D’aujourd’hui. p. 218.
2- De Foucauld, C. *Reconnaissance, Ibid*, p. 226.

ومعمارها، وكذلك أماكن القلاع متى وجدت، وطبيعة الأسوار والأبواب ونوع السلاح، بل وبعض الإهتمام أحيانا بزي النساء. مع التأكيد خصوصا على الحالة الأمنية من ذكر الزطاطة والذبيحة والعناية، ومن يملك السيادة على القصور وكذلك الحالة التجارية، من عدد القوافل مثلا، وعلاقة المستقرين بالبدو، وعلاقة الكل بالمخزن و«نزالاته» أين توجد. ويمكن أن نضيف انفضاح الطابع المخابراتي للرحلة عند اهتمامه الدقيق والمريب بالتفاصيل، وهو اهتمام لا يفسره سوى الرغبة الأكيدة في المعرفة الدقيقة بما يميز الناس والقبائل حتى لا يتيه الفاعل العسكري أو المراقب المدني المنتظر. «إن الزي والسلاح هنا جد متشابه مع مثيله في الواحات السابقة، فالفرسان لازالوا يحملون كيس البارود الفيلالي الأنيق المطرز بالحرير. وليس هناك فرق سوى في تسريحة الشعر حيث تترك قمة الرأس هنا عارية. أما الرباط القطني الضيق الذي تشد به الجبهة في «دادس» و«تودغة» و«غريس»، فقد ترك مكانه لبعض خيوط شعر الجمال أو جدائل الحرير التي غالبا ما تكون مزوقة بطرز حريري ذي ألوان ناصعة. إن الزي والسلاح هنا واحد حتى «قصابي الشرفاء».»[1]

هكذا يمكن أن نكثف اهتمام دوفوكو بزوايا مجالية ثلاث أساسية : مجالية ترابية ومجالية سياسية وأخرى إثنوغرافية مخابراتية.

- دي سيكنزاك

وصلت بعثة دي زكنزاك إلى غريس سنة 1904. وإذا أمكن أن نتحدث عن تشابه كبير بين استعماله لتقنية الوصف التضاريسي والسياسي وبين أوصاف رحلة دي فوكو، فإن وصفه رغم ذلك كان أكثر حياة في ذكر أنشطة الساكنة الاجتماعية والاقتصادية بل وفي الإلتصاق الدقيق بالحياة اليومية.[2] وقد ساعد دي زكنزاك على ذلك، الطبيعة الجماعية والعلنية لمشروعه على عكس فردانية وسرية دي فوكو. تلك الطبيعة التي مكنته من الإطلاع والتأمل، بل والتمتع أحيانا بجمالية المناطق المستكشفة، وذلك دون أن يخفي إعجابا وصل إلى حدود الفتنة أحيانا.

1- *Ibidem*.- p. 228

2- De Segonzac, R.- *Au coeur de l'Atlas, Mission au Maroc, 19040-1905*. Ed. Emile LAROSE. Paris. 1910. p. 64.

كما أن هناك إضافات لديه لا نجدها غالبا عند دي فوكو، مثل الإهتمام الواضح بالجانب الاقتصادي مثلا، وكذلك العمل على تشجيرات مورفولوجية للساكنة، وكذلك اعتماده وثائق مخطوطة، بل وتجاوز كل ذلك نحو محاولة الفهم بل والتفسير والمناقشة، «تعتبر العزلة ثمن العواطف الجميلة لهذه الحياة التي تملأ الروح وتتعب الجسد، لكنها تترك القلب قلقا وفارغا».[1]

ولم يخل سرد دي زكنزاك من مبالغات ومغالطات بل وأكاذيب وافتراءات، مثل ادعائه بقتل الأهالي لقواد السلاطين.[2]

ومن نماذج قراءاته وتحليلاته مناقشته للتصوف والطرقية المحليين عبر المعاينة. حيث استخلص من نظره لهما اتسامهما بعدم التسامح والبله، رغم انتهائه بكون مذهب الشيخ الدرقاوي، إذا نزعنا عنه مغالاة وخرافات مريديه، يبقى ذلك المذهب لا يعلم سوى التضحية والزهد عن متاع الدنيا والفناء في الذات الإلهية، ذلك الفناء الذي يهب السعادة التامة للفقراء.[3]

- إدموند دوتي (1914)

لم يزر إدموند دوتي، صاحب التقرير السري الشهير، غريس، لكنه مر بمنطقة متاخمة هي الأطلس. ولعل تجاوزه في رحلته الوصف طبيعيا كان أم سياسيا، اجتماعيا أم اقتصاديا، نحو مقاربة جديدة يمكن نعتها بالتحليل النفسي - الإجتماعي، بل والحضاري إن صح التعبير،[4] لعل تجاوزه ذاك، هو المبرر هنا لاستثماره ضمن المعرفة الكولونيالية الممهدة للإنقضاض والإحتلال وأجرأة المشروع.

يتجاوز إدموند دوتي «التعاطف» الخجول مع الأهالي لكل من دي فوكو ودي زكنزاك، ليبدي بوضوح أكثر الكشف عن انفعالاته وافتتانه بالحضارة المغربية، «لقد عملنا على الإفصاح بعظمة هذه الطبيعة التي لازالت بكرا غالبا بالنسبة للعمل الإنساني،

1- *Ibid*. p. 66.
2- *Ibid*. p. 74.
3- *Ibidem*. p. 79.

4- لقد خصص مؤلفا لتفسير النفسية- الإجتماعية المغربية. أنظر: Doutte, E.- *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*. Ed. J. Maisonneuve, Guenter. 1984.

وكذلك عن السعادة التي يجدها المتحضر هنا، متذوقا تلك الحرية التي فقدها في وطنه الأصلي».[1] «لقد أفصحنا من قبل عن بساطة المسلمين المغاربة، عن عظمة بعض تقاليدهم العريقة، طبيعة مواقفهم وورعهم الساذج وصبرهم الصموت.»[2]. «يصعب على المسيحي أن يقيم المسلم، لأن مستبق العرق يعمينا رغم أنوفنا، إنه يرينا تقواهم تعصبا، وزهدهم كسلا، وحشمتهم لامبالاة، وصبرهم تواكلا، وتضامنهم انحيازا...»[3]. «لكن كل هذا، دون أن نتحدث عن العنف والسرقة والكذب والمكر التي نصادفها لدى المغاربة الأكثر همجية، كما هو الأمر عند جميع الشعوب البدائية...»[4]

إلى أي شيء نخلص من المعرفة الإستكشافية الكولونيالية؟ إنها معرفة وظيفية تمهيدية تهدف إلى الفهم، بل و«التفهم» بالوصف والتحليل والمناقشة. إلا أنه ورغم دقتها وتمظهرها بالبرود والموضوعية والحياد المنهجي، فقد أبانت عن تناقضات أنوية منطلقة أساسا من الطبيعة المعقدة التي ربطت الأبوية المزيفة الغربية بالربيب المحلي.

ب - الآداب العسكرية:

نجد ضمن الآداب العسكرية، أعمالا رصينة ومونوغرافيات سيتم اعتمادها لاحقا كمرجعية علمية مركزية سواء من طرف السوسيولوجيين الكولونياليين أو الوطنيين، بل وحتى الإنقساميين. وسنحاول هنا أن نقرأ عملين لعلاقتهما بمجال بحثنا من جهة ولرصانتهما من جهة ثانية. إنهما «أيت عطا الصحراء» لجورج سبيلمان، و«الجبل البربري» لسعيد كنون.

_ كتاب «أيت عطا الصحراء»

اعتمد سبيلمان في كتابه منهجية شبه مونوغرافية أكاديمية لدراسة التاريخ الاجتماعي لحلف قبلي محوري في الصحراء، وهو حلف لم يتناوله أحد قبله بالبحث بتلك الكثافة وتلك الدقة، معتمدا في ذلك على مراجع تاريخية كلاسيكية وعلى الرواية

1- Doutte, E.- *En Tribu. op -cit*. p. 434.
2- *Ibid*. p. 435.
3- *Ibid*. p. 436.
4- *Ibid*. Même page.

الشفوية. وقد استطاع أن يلم بمن هم أيت عطا، تاريخهم، خصائص سلوكهم، أعرافهم وسكناهم، سلاحهم وزيهم، تغذيتهم وتدينهم، صناعتهم وتجارتهم[1]. بل وشجر لأول مرة بنيتهم المورفولوجية.

ولعل أهم ماميز عمل سبيلمان، اعتماده التاريخ منهجية للفهم والتحليل والتفسير، بل وتجاوز ذلك إلى تقنية المقارنة ليعطي لبحثه طابعا سوسيولوجيا حاول فيه التبرير إما بالنفسية - الاجتماعية أو بالإيكولوجيا - المجالية.[2]

إلا أنه ورغم توخيه الموضوعية ووعيه الشديد بخطورة الإسقاط، وكذلك ورغم حسه التاريخي الكبير، ورغم تبنيه أيضا للمقاربة المورفولوجية المساعدة على تلمس الطابع المتحول للإنتظامات الاجتماعية وأثر المجال فيها،[3] رغم كل ذلك، لم يمنعه التسلح بكل ماسبق من السقوط فيما يمكن نعته بالتوصيف المتناقض والإسقاط والعمى الإيديولوجي الكولونيالي.[4] ولعل أحسن نموذج على ذلك قراءته لبنود الصلح بين أيت عطا والفرنسيين. تلك البنود التي من بينها بند فرضه العطاويون وينص على عدم إحضار النساء إلى الإحتفالات الرسمية، والذي حاول أن يفسره بالعقد التقليدي «تافركانت» الذي يمنع التزاوج بين الإخوة بذلك العقد، وهو تفسير مجحف وواضح لايحتاج إلى تعليق.

_ كتاب الجبل البربري

إذا أمكن أن نعتبر جورج سبيلمان مفسرا تاريخيا بامتياز، فإن أحسن مونوغرافيا مورفولوجية حول أمازيغ الأطلس هي عمل الضابط الجزائري القبائلي في جيش فرنسا. إنه مفاوض موحا أحمو الزياني، والذي سيصبح صهره و«فاتح» غريس وتاديغوست، والذي حاول إقناع الساكنة بعدم جدوى المقاومة.

1- Spillman (Capt), G.- *Les Aît Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa*. Félix Moncho. I.H.E.M. p. 29.

2- *Ibid*. p. 34.

3- *Ibid.* p. 48.

4- أنظر هذه الصفحة الغريبة التي تنم عن ارتباكه الكبير في التردد بين الأوصاف الإيجابية والسلبية لأيت عطا، والتي انتهى بجمعها بأدوات الربط.!، *Ibidem*. p. 35.

لم يستطع أي باحث أجنبي قبل روبير مونطاني أن ينفذ إلى العالم الأمازيغي الحميم، المورفولوجيا أساسا، مثل ما فعل سعيد كنون. حيث استطاع أن يتلمس وبدقة عناصرها وآلياتها وتمفصلاتها وحقائقها وخدعها وظاهرها وباطنها، مثل دور السن والثراء في الزعامة مثلا.[1] ودور مؤسسات : «الأمحارس» و«الأمزال» و«أتيخسي» و«تاضا»[2] في اختراق القبيلة من جهة وفي طبعها بمرونة تمكنها من ضم الأجنبي من جهة ثانية، كما أنه استطاع أن ينفذ إلى دور المعاش في التنظيم الاجتماعي رغم التمظهر بالرابطة الدموية. واهتم كذلك اهتماما فائقا بالتنظيم السياسي للقبيلة عبر مؤسساتها، الأمغار والجماعت خصوصا.

ومن مميزات الكتاب أيضا حرصه على كتابة السيرة السياسية والعسكرية للشخصيات التاريخية النافذة والمؤثرة أمثال موحا أسعيد الوراوي وسيدي اعلي أمهاوش وموحا أحمو الزياني وأولاد سيدي اعلي.

ورغم كل ما سبق ذكره، لم ينج سعيد كنون من النظرة الكولونيالية المتعالية: «إن البربري لا يحكم ضميره إلا عندما يستنفذ الوسائل الأخرى».[3] يقول متناسيا أرومته الأمازيغية.

ج - تقارير ضباط الشؤون الأهلية:

- نموذج روجي هنري

يشبه عمل روجي هنري، عمل سعيد كنون إلى حد بعيد، حيث تمكن هو أيضا أن ينفذ وبعمق، نظرا لمهامه كضابط للشؤون الأهلية ب«أسول» بأعلى غريس، إلى التنظيم الاجتماعي والسياسي للقبيلة اليافلمانية، أيت مرغاد خصوصا. ولقد تمحور بحثه حول السلطة أساسا، من يمارسها وكيف تستحق وتتوزع وتمارس. كما اهتم بشؤون أخرى مثل وضع المرأة داخل الجماعة، ومناقشة مفهوم المسؤولية الجماعية، وحق المساعدة كبؤرة العرف المحلي. لا يضيف روجي هنري جديدا لتاريخ المنطقة، وتبقى حسنة عمله في

1- Guennoun, S.- *La Montagne Bebère*. Ed. du Comité de l’Afrique Française. Paris. p. 115.

2- «الأمحارس»: شكل من أشكال التبني، «الأمازال»: شكل من أشكال الرفقة بين جنسين... «أوتيخسي»: هي الذبيحة، شكل من أشكال الحماية... «تاضا»: من أوفاق العهد والأخوة.

3- Guennoun, S. _*La Montagne Berbère*. *Op - cit.* p. 136.

تقريريته وعدم تسرعه في إصدار الأحكام.[1]

د - المعرفة القانونية - العرفية - القضائية

شكل العرف والقضاء العرفي العمود الفقري للإهتمام الكولونيالي، وذلك منذ ظهير 11 شتنبر 1914، سنة احتلال خنيفرة. الظهير الذي يقضي باعتماد أعراف البربر في تنظيم شؤونهم وقضائهم على الخصوص. ووفق ذلك تشكلت محاكم عرفية توجت بما عرف بالظهير البربري 16 ماي 1930 وبمجلة القضاء العرفي. يصرح الظهير البربري أنه يهدف، من ضمن ما يهدف إليه، خير ومصلحة الرعايا وطمأنينة الدولة. ويبدو من قراءته أنه يريد إعادة الإعتبار للمؤسسات التقليدية، زعماء وشيوخ القبائل خصوصا، وهو أمر لم يكن ليثير الإهتمام لولا ما يشير إليه البند الثاني من اختصاص المحاكم العرفية ليس بالمنازعات العادية فحسب، بل وحتى الأحوال الشخصية والإرث، المجالين الشرعيين بامتياز. كما أنه أوكل المسؤولية الأولى لمندوب الحكومة الجهوي الذي يراقب زعيم القبيلة (القايد)، وبجانبهما كاتب ضبط يحل محل العدول ويؤدي وظيفة التوثيق، وهي تشكيلة تفقد الزعامة القبلية التقليدية الإعتبار.

لقد حاول جل ضباط الشؤون الأهلية والمراقبين المدنيين أن يفهموا الأعراف المحلية، وبذلك تشكل متن فقهي عرفي لا يستهان به، متن اتخذ الملاحظة المباشرة والمقابلة والإستجواب تقنيات بحث وتجميع المعلومات، والتي غالبا ما كانت تصاغ بتوصيف شبه محايد، لكنه جد مركز على حالة عدم الإستقرار ومؤسسات الحماية التي أشرنا إليها سلفا. لقد اشتغلت السوسيولوجيا الكولونيالية القانونية على الأوفاق والعهود والمواثيق، وذلك كله ضمن مفهوم أعم هو الأزرف، وعلاقته بالعادة والميعاد و«القانون» وغيرها من المصطلحات العرفية الأمازيغية.[2]

1- Henry, R._*Une Tribu de transhumants du grand Atlas; Les Aït Morghad*. Dactylographié.

2- هناك كتابات كثيرة بهذا الصدد، أنظر فيما يهمنا هنا: Salmon, G.- Les Institutions Berbères au Maroc, *Archives Marocaines*. T. 1. 1904.

Montagne, R. - Le Régime juridique des tribus du Sud marocain. *Hespéris*. T. IV. 1924.

Bruno, H. et Bousquet, G-H. Les Pactes d'Alliances chez les Berbères. *Hespéris*. T. XXXIII, 1946.

Bruno, H.- La Justice Berbère au Maroc Central. *Hespéris*. T. II. 1922.

et surtout: Bousquet, G-H. Le Droit Coutumier des Aït Hadiddou. *A.I.E.O. T*. XIV. 1956.

فيما يخص منطقتنا فقد حاول بوسكي وبفقهية جيدة أن يقارن بين العرف الحديديوي والشريعة، وانتهى إلى الإعتراف بالأثر الكبير للشرع الإسلامي على العرف المحلي[1].

هـ - المعرفة التقنية

تفرغ بعض الضباط المهندسين ذوي التكوين العلمي - التقني إلى البحث الجيولوجي والهيدرولوجي خصوصا، إلى جانب اهتمامهم بالمناخ والتربة والنبات وغير ذلك من المعطيات الطبيعية. ولعل أهم ما شغل المعرفة التقنية في واحة غريس، مشكل الجفاف، وبذلك عملوا على تتبع منابع المياه، الوادي خصوصا. حيث حاولوا فهم طبيعته وسلوكه من أجل التحكم فيه بإقامة سدود وربطات عليه، أو بالبحث عن موارد أخرى من العيون والخطارات وغيرها. وكل ذلك في أفق تحسين وضعية أبناء الواحة حتى لا يهاجروا نحو المدن.[2]

لقد تركت المعرفة الكولونيالية متنا تقنيا جيدا استغل بعضه وجله لازال ينتظر.[3]

و- المعرفة الثقافية

لم تهتم المعرفة الكولونيالية، في حالتنا على الأقل، بالثقافة بمعناها الضيق، اللهم ما كان من اهتمام عابر بالولاية والتصوف، أو انتباه خجول إلى المرأة في سياق الإهتمام الخاص بالعرف وظاهرة الطلاق المثيرة للإنتباه في الواحات والتخوم، عند أيت حديدو خصوصا. ولعل ما أثار انتباه ضابط الشؤون الأهلية مؤسسة الزواج التي حاول فهم

1- Bousquet, G-H. Le Droit Coutumier des Aït Hadiddou. *Ibid.* pp. 117-119.

2- أنظر العمل الجيد الذي قام به الضابط ف-ريستا: Rista, F. (Lieutenant). *Notes sur l'Irrigation des Districts de l'Amsed, du Tadighoust et d'Idelsen du Bureau de Goulmima.* dactylographié. (Avril 1949)

3- أنظر على سبيل المثال: Celerier, J. Réhabilitation du Sahara? *Hespéris*, T. XLI. 1954.
Gaucher, G. Irrigation et mise en valeur de Tafilalet. *Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes*. T. 5. 1946
Joly, F.- Les Aït Khebbach de Taouz. *Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes*. T. 7. 1951.
Joly, F. Promenade dans les Palmeraies et Oasis. *Confluent* N° 8, Juin/Juillet 1960.
Joly, F. Essai d'une définition du préséhara marocain. *Bulletin de La Société royale de Géographie d'Egypte*. T. XXV. 1953.
Bouquerel, J. Un Assif de l'Atlas: le Haut Ghéris. *Notes Marocaines*. N° 3.
et surtout, La monographie: La mise en valeur des régions sahariennes (groupe d'ingénieurs). *B.E.S.M.* Volume XIX. N° 66. Septembre 1955.

طقوسها، وعلاقتها بالسحر والعناصر، الماء والنار والحديد. بل واهتم أيضا ب «تكرامت» و«أمزوار» ومحاولة فك رموز الوشم والزي وشكل تسريحة الشعر، وذلك كله بعين إثنوغرافية غرائبية تحاول التوصيف بالبدائية والعقلية السحرية[1].

لقد إنصب العقل المعرفي الكولونيالي بجميع أشكاله على جل مناحي الحياة الإجتماعية ووقائعها، وذلك بتفاوت جد موح. حيث أولوية المجال الترابي والسياسي، ثم العرفي القانوني، وبعد ذلك التقني ثم الثقافي. وكل ذلك بحس مخابراتي دقيق، تم بتوظيف التقنيات السوسيولوجية الوضعية، من مقارنة وفهم وتفهم وتعاطف أحيانا ومناقشة وتفسير وتحليل الوثائق وتشجير المورفولوجيا، بل ومحاولة إقامة تحليل نفسي - اجتماعي لسلوك الجماعة. وكل ذلك أيضا بمنهجية تاريخية إسقاطية أحيانا لم تخل من مغالطات.

أخيرا، لقد حاول المشروع الكولونيالي تسخير المعرفة نحو الفعل والأجرأة إضافة إلى الإستثمار السياسي لها بالدسائس والإبتزاز تارة، وبالعنف تارات.

1- Perrony, R. (Capt).- *Page de Folklore: Aït Hadiddou, les cérémonies du mariage*. Dactylographié (49 pages). 1937.
Begot, R.- Dans le Haut Dadès et l'Imdghass. *Revue de Géographie Marocaine*. N° 1. 1947. p. 35.

الفصل الأول
التقليد والتغيير في حالة الاستعمار

تطمح هذه المساهمة أن تكون سوسيولوجيا من الداخل بتعبير مافيسولي[1]، سوسيولوجيا تحاول فهم[2] ما جرى، انطلاقا من معاينة فهم الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم. يرى شوتز **Schutz** «إن موضوعات الفكر التي يبنيها الباحث في العلوم الاجتماعية من أجل قبض الواقع الاجتماعي، يجب أن تؤسس على موضوعات فكر بشر يعيش يوميا في العالم الاجتماعي، من هذا المنطلق، تعتبر بناءات العلوم الاجتماعية، بناءات من الدرجة الثانية، بمعنى أنها بناءات لبناءات فاعلين اجتماعيين في الساحة الاجتماعية، والذي على الباحث أن يلاحظ سلوكاتهم وأن يفسرها وفق القواعد المسطرية لعلمه.»[3] هل هذا ممكن، خاصة عندما يكون الباحث من المجال المبحوث نفسه؟ هذا ممكن انطلاقا من كون السوسيولوجيا نفسها خطاب يحاول قراءة الخطابات. ومن ثمة « **قيمة التجربة والخيال، والتصنيفات، بل والقدرات العادية والعواطف النفسية- الاجتماعية، إن بالنسبة لتكوين المجتمع أم تأويله.**»[4]

الأمر الذي فرض احترام تنويع مصادر الخبر والمعلومة، من رواية شفوية، متنوعة ومختلفة، وشعر ورواية وملاحظة وغيرها. دون وضع الجدار المصطنع الذي تقيمه الوضعية بين الحس المشترك والمعرفة العالمة. لكن في نفس الوقت دون ترك الذات تنتج الانطباعات والتلقائية.

إن الموضوعية الساذجة إلغاء للذات الباحثة نفسها، ومن ثمة خرافة إقامة مفعول دون فاعل.

لا نريد هنا أن نتخندق إبستميا، إلا أن التأطير النظري يبقى أمرا مطلوبا وبوعي، كما أكد هنري مندراس على ذلك، «**في حقيقة الأمر، لا يمكن أن تكون هناك ملاحظة**

1- Watier, P._ *Le savoir sociologique, sociologie du quotidien*, Desclé de Brouwer, Paris, 2000. p, 13.

2- Blin, T. *Phénoménologie de L'action sociale d'Alfred Schutz*, «La compréhension avent d'étre une méthode particulière de pénétration des faits sociaux, est une condition ontologique de l'existence de la société.» L'Harmattan, Paris ,1999. p, 16.

3- Blin, T. *Phénoménologie de L'action sociale d'Alfred Schutzm, ibid,* p, 17

4- Watier, P._ *Le savoir sociologique, ibid,* p, 27.

الواقع الاجتماعي دون حد أدنى من النظرية».[1]، ودون ذلك يمكن أن نسقط في النظرية المتوحشة واللاواعية، والتي قد تستبد بمسارات البحث نحو انزلاقات وتناقضات.

فكما أن المعرفة المباشرة والتلقائية للواقع الاجتماعي متعذرة، كذلك المعرفة غير المسلحة بنظر، لأن كونية السلوك الإنساني والمقارنة، وحدهما الكفيلتان بعدم السقوط في الترميق والمحاولة والخطأ.

في هذا السياق الإبستيمي يحق علينا أن نتساءل عن شروط ووسائل إنجاز السوسيولوجيا والتاريخ الجهوي والمحلي، انطلاقا من كون الجماعة القروية جزء من منظومة اجتماعية كبرى (الدولة والإدارة والمدينة والسوق والثقافة الوطنية والعولمة)، الأمر الذي يحتم علينا مناقشة جدل العام بالخاص.

في عالم يبدو أنه يتوحد ويتشابه شيئا فشيئا، وتذوب فيه الإختلافات والتمايزات، وذلك تحت تأثير العولمة. من اقتصاد السوق إلى مجتمع السوق، بتعبير كارل بولاني[2]، العولمة التي بدأت تمس، وبعمق أحيانا، كل المستويات، وكل التنظيمات بدءا بالاقتصادية والتجارية حتى الثقافية والقيمية، مرورا بالسياسية والاجتماعية، و ذلك بتشغيل» آليات الرأسمال وانفتاح الأسواق الاقتصادية الوطنية وتنمية المعلومة والاتصال»[3] في مثل هذا العالم الذي يعطي هذه الصورة المنمطة والمدمجة، لا يمكن إغفال الوجه الآخر للعملة، حيث تبرز ظاهرة، ربما من أهم الظواهر الجديدة في الألفية الثالثة[4]، والتي تتجلى في انبعاث الخصوصيات الثقافية والسياسية المحلية، أو ما يصطلح عليه بإشكالية الهوية. ويمكن اعتبار عودة الاهتمام بهذه الخصوصيات نتيجة للعولمة نفسها، وذلك كرد فعل ضد الإدماج العام، ومقاومة الأنظمة التقليدية للتغيرات، والتي ربما تحتاج إلى وقت حتى تستوعبها وتدمجها ضمن شبكاتها القيمية وأشكال اشتغالها. أو كبقايا الدولة-

1- Mendras, H. *Eléments de sociologie*, «En effet, il n’y a pas d’observation de la réalité sociale sans un minimum de théorie au départ» p, 11. Armand Colin. 1975.

2- Polanyi, K. *La grande transformation, aux origines politiques et économiques de notre temps*. Gallimard, Paris, 1983.

3- Jelin, E. Dialogue, convergences et divergences : les mouvements sociaux au sein du MERCOSUR. in *Revue internationale des sciences sociales*. Mars, 1999. p,43.

4- لقد كانت المفاهيم الأساسية لمؤتمر دوربان حول العرقية (غشت 2001)، الاستعمار والعرقية والعبودية.

الخلاص، ضد الليبرالية عند كارل ماركس أو كارل بولاني أو كوستا إسبينغ- أندرسون ومفهومه في نزع السلعية عن المجتمع.[1] **Démarchandisation**

إن العولمة ليست ظاهرة جديدة، فالاستعمار شكل من أشكالها الأولية «ولا يعدو أن يكون الأمر تغيرا واختلافا في السلم والزمن، إن تاريخ الاستعمار ظاهرة عالمية. لكن دون أقمار اصطناعية تمكن من التواصل اللحظي والتشغيل المنسق للأسواق المالية»[2] التشغيل اللحظي الذي يذكرنا بالمفهوم المحوري عند كارل بولاني، والذي يتجلى في الضبط الذاتي للسوق **marché autorégulateur** والذي اعتبره العمود الفقري للتحول الليبرالي الأكبر **la grande transformation** في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، وفي صدد انتقاده لهذا الضبط الذاتي، ذكر بولاني كحجة، عدم قبول المستعمرات له، وعدم مطابقته مع المجتمعات التقليدية..[3]

يعلمنا التاريخ أن دلالات المحلي والوطني والدولي متغيرة[4]، فما هو محلي يمكن أن يصبح وطنيا، وما هو وطني يمكن أن يصبح دوليا، كما أن الدولي يمكن أن يتغلغل في الوطني، بل وحتى في المحلي، ويبقى الأهم سوسيولوجيا هو البحث في كيفية اشتغال المستويات، مدى التوافق وحدود الاندماج والإدماج، أو التقابل والتنافر، كما وكيفا، وانتشارا في المجال وصيرورة في الزمن.

إن النظر إلى المحلي بعين ملاحظة يبرز التفاوتات والاختلافات في الدلالة والمعنى، بالنسبة للحدود مثلا أو التصورات أو حتى الوظائف والأدوار..

1- Merrien, F-X. Etats- providences en devenir, Une relecture critique des recherches récentes, in *Revue française de sociologie*, 43-2, 2002.p, 213.

2- Jelin, E. Dialogue, convergences et divergences : les mouvements sociaux au sein du MERCOSUR. in *Revue internationale des sciences sociales. Ibid.* Mars, 1999. Même page.

3- Polanyi, K. *La grande transformation, aux origines politiques et économiques de notre temps* «Stimulants extrêmement artificiels que l'on avait administrés au corps social afin de répondre à une situation créée par le phénomène non moins artificiel de la machine » p. 89. Gallimard, Paris, 1983.

4- Jelin, E. Dialogue, convergences et divergences : les mouvements sociaux au sein du MERCOSUR. in *Revue internationale des sciences sociales. ibidem.* Mars, 1999. Même page.

هذا المعطى الأولي يبرر منهجيا الالتفات للواحات كمجالات ذات خصوصية [1]، خصوصية المجال أولا والتاريخ ثانية والمكونات الاجتماعية ثالثة.

إن الواحات وإن كانت مخترقة بالتاريخ[2]، حيث ساهمت، ولازالت تساهم كثيرا في الهجرات، والتجارة البعيدة المدى، بل واستطاع بعضها إنتاج ممالك ودولا، مثل درعة بالنسبة للسعديين وتافيلالت بالنسبة للعلويين. ورغم ذلك يبقى المجال كتراب وجغرافيا أكثر بروزا وحضورا.

ذلك المجال الذي تثير فيه أمور أساسية لعل أهمها الندرة والعزلة، ندرة المياه كأساس لكل الندرات، والعزلة التي تتمظهر بها الواحة كبقعة خضراء في بحر من الصحراء، العزلة التي يقويها الجبل أحيانا في حالات مثل حالتنا في غريس.

مع الندرة والخصاص والعزلة لابد أن يستجيب الإنسان فيكون المجهود والتدبير، تدبير الماء خاصة، وتلك هي السمات الأخرى التي تميز المجال الواحي، وإذا أضيف لكل ذلك تعقد البنية الاجتماعية والإثنية للواحات، ونظامها التراتبي الهيرارشي شبه المغلق، حصلنا على خصوصية جيدة، لكنها غير مطلقة. حيث تلتقي مع مناطق أخرى قروية في مثل الاشتغال بالفلح والزراعة خاصة، وحضرية في التجارة والأسواق، وبعض الصناعات التقليدية.

وتبقى الخصوصية الثقافية الاستثنائية[3] للواحات موردا خصبا للأفكار..

إن فهم كيفية اشتغال المجتمعات المحلية، جد مساعد على الإعداد الجيد للهندسات والسياسات الاجتماعية من أجل التغيير، لأن أهم التقنيات والمناهج التحديثية تبقى بدون جدوى ما لم تستضمر وتستعمل من طرف الساكنة المحلية.[4]

1- Bencherifa, A. Problèmes de développement dans les oasis marocains quelques tendances récentes. In *Mutations socio-spatiales ans les campagnes marocaines*. Publications de la faculté des lettres et des sciences humaines - Rabat. Séries: colloques et séminaires, 1994. n° 28. pp, 9-10. *(-écosystème créé artificiellement par l'intervention humaine dans un difficile environnement, dans le but de subvenir aux besoins d'une population nombreuse...- des espaces marginaux… – des ilots réticents au progrès…rapport technique – structures* …)

2- Bencherifa, A. Problèmes de développement dans les oasis marocains quelques tendances récentes. *Ibid*, p, 13.

3- Bencherifa, A. Problèmes de développement dans les oasis marocains quelques tendances récentes. *Ibidem* p, 26.

4- Mendras, H. *La fin des paysans*, Babel, 1984, p, 9.

إذا كانت خصوصية الواحات تبرر العودة إليها والبحث فيها، فإن الاستعمار لا يقل قيمة، وذلك كظاهرة يمكن أن تساعد في فهم كثير من الظواهر الحالية، من مثل الإقصاء والعنف و العنف المضاد. بل ويمكن أن نتلمس للأصوليات بأنواعها جذرا ما في اللحظة الاستعمارية، إذ يمكن أن نقارن سوسيولوجيا الأصولية في عصر العولمة بالعرقية في عصر الاستعمار، ويمكن للمقارنة تلك أن تنير كثيرا من خبايا عنف صدمات الذوات والهويات.[1]

إن عودة وانبعاث الاهتمام بالخصوصيات الثقافية والإثنية، وإعادة الاعتبار للتقاليد وقضايا التراث، بل وبالحدود المجالية للثقافات. إن العودة هذه، إن على المستوى السياسي والوقائعي، أم على مستوى البحوث العلمية، أمر جد مشجع للالتفات مرة أخرى للمجتمعات المحلية سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا، «ففي أوروبا مثلا نلاحظ بقدر ما تنفتح الحدود الداخلية بقدر ما تغلق الحدود الخارجية»[2]

إن فهم المجتمعات المحلية، وكيفية اشتغالها أثناء لحظات حاسمة مثل لحظة مقاومة المستعمر، يمكن أن تساعدنا على التخفيف من عدم فهم الآخر، عدم الفهم الذي يمكن اعتباره خلفية العنف والتهميش والإقصاء.[3]

كل هذه المعطيات بقدر ما هي محفزة عمليا على المضي في البحث، بقدر ما تطرح بعض المشاكل المنهجية والإبستمية من نوع علاقة العام بالخاص. فبقدر ما تعتمد السوسيولوجيا على أولية **axiome** أساسية مفادها شمولية وكونية وعمومية **universalité** الظاهرة الاجتماعية **le phénomène social est universel**، بقدر ما تعتمد أيضا على العيني والتاريخي والخاص[4]. ويتعقد الأمر عندما يكون الباحث عضوا من المجتمع المبحوث.

1- Stolcke, V. Le nouveau discours de l’exclusion en Europ. In *Revue internationale des sciences sociales*. Mars, 1999.p, 31.

2- Stocke, V. Le nouveau discours de l’exclusion en Europe. *ibid*, p, 31.

3- Stocke, V. *ibidem*, p, 36.

4- Badie, B. Formes et transformations des communautés politiques. (... le postulat ou- le pari- de la macro-sociologie politique est de penser que ces singularités sont également lisibles lorsquon prend en compte leur rapport à des catégories universelles..*)* In *Traité de sciences politique*. T.I. PUF. Pari, 1985.

غير أن العائق الإبستمولوجي الأول هذا لا يمكن إلا أن يحفز على البحث عن البدائل والحلول الملائمة من أجل التلطيف من حدة أحد الأمرين، انسحاب المحلي لصالح العام أو انسحاب العام لصالح المحلي. إن الحل كما اقترح بورديو، هو أن يتحرر الاهتمام بالمحلي من مز لقين، الطوباوية والعاطفة، ومحاولة إسقاط وتفسير العام بالخاص من جهة، ومن المذهبية السوسيولوجية التي تسوي كل خاص بكل خاص من جهة ثانية.[1]

من هذا المنطلق، فواحة غريس تجمع بشري كأي تجمع بشري في أي بقعة من الأرض، وهي واحة ضمن الواحات المغربية، وما يترتب عن ذلك من الانتماء للمجتمع الأب وللوطن[2].

وهي أطروحتنا المركزية في رسالة الدبلوم، حيث كان الهم ولازال تجاوز تفكيكيات الإنقسامية وثنائيات السوسيولوجيا الكولونيالية. التفكك اللانهائي للقبيلة والصراع التبسيطي: مدن، مخزن، شرع/قرى وبوادي، سيبة، عرف.

وقد استطعنا بعدد كبير جدا من الشواهد والأمثلة والوقائع أن نؤكد على عدم الاستقلالية التامة لواحتنا، بل وأزلنا غموض الطابع السيب لغريس وبلدة «كولميمة»، حيث وضحنا كون حلف «أيت يافلمان» بزعامة «أيت مرغاد»، حلف مخزني لمواجهة القبيل السيب فعلا، «أيت عطا»، وأن هناك ما يقرب عشرة قياد غريسيين حسنيين (نسبة إلى الحسن الأول) في حين ليس هناك ولو قايد عطاوي واحد، بل وأكثر من كل ذلك فأيت مرغاد الغريسيين، هم الحلفاء الطبيعيين لشرفاء سجلماسة أثناء القلاقل.

إلا أنه ورغم كل ذلك تبقى هناك خصوصيات غريسية لا يمكن القفز عليها ولايمكن إنكارها. خصوصيات إكولوجية أولا، فالعزلة المشهودة لغريس، جاءت نتيجة انحصارها بين الصحراء والجبل، وكذلك شبه العزلة التاريخية، حيث الشعور أن هناك انحصار للتاريخ على مستوى المعمار مثلا، شرقا عند الراشدية وتافيلالت، حيث القصور

1- Bourdieu, P. Du bon usage de l’ethnologie. *Awal*, n° 1, Janvier, 1985. Pp, 24_25.
2- Mendras, H. *La fin des paysans ibid*, « Une société paysanne est un ensemble relativement autonome au sein d’une société globale plus large. Si une société agraire est complètement autonome et ne fait pas fonctionnellement partie d’une société plus large, nous parlerons de société «sauvage» *» p, 17.*

المخزنية، وغربا عند تنغير حيث القصبات الكلاوية. أما القصور الغريسية والتي اصطلحنا على تسميتها في بحث الدبلوم بالقصور العادية والوظيفية، فكأنها خارج التاريخ تعيد نفسها لتؤدي وظائف أولية وحياتية أساسية دون حد أدنى من الرفاه. إضافة إلى خصوصية أساسية ومؤثرة اجتماعيا وسياسيا، وهي غياب شبه مطلق للظاهرة المدينية، كما أن القروية هنا من نوع خاص،حيث تداخل طرق الإنتاج.

تتميز واحة غريس أيضا من الناحية الاجتماعية- السياسية بتواجد الإتحاديات القبلية الكبرى، أيت عطا وأيت يافلمان، تلك الإتحاديات، بذلك الحجم تكاد تندثر في مناطق أخرى من المغرب. وهي اتحاديات استنفرت لمقاومة الإحتلال وأضفت طابعا نضاليا وتضامنيا قويا انضاف إلى التقاليد التعاونية.

إضافة إلى أن الإحتلال وصلها متأخرا، وبذلك يمكن أن نتحدث عن استعمار خفيف لم يدم طويلا، من 1931 إلى 1956 وكان نصف المدة حروبا عنيفة، «بوكافر» و«بادو»، ومقاومات. شكلت منتهى التاريخ الكولونيالي.

غير أنها عزلة مخترقة، بالدين أولا، وبالعلاقة مع المخزن ثانية، وبالتجارة وحراسة القوافل والغزو. إنها تؤكد المقولة السوسيولوجية على أنه ليس هناك مجتمع مغلق، كما أنه ليس هناك مجتمع راكد، كما أنه ليس هناك مجتمع متجانس ومنسجم.

ماذا نريد أن نفعل بواحة غريس وبالإستعمار؟ بآليات التحول وبأشكال المقاومة؟

إن الهدف الدقيق من البحث هو وصف التغيرات التي مست غريس أثناء السياسة الأهلية. وبذلك يشكل التغير المفهوم المركزي للبحث، تغير اشتغل بآليات محددة نحاول رصدها، وبصيرورة ووتائر مختلفة لابد من الإنتباه إليها، وبأشكال مختلفة من إثنية وفئوية ووظيفية وغيرها. ثم كيف كانت المقاومة المسلحة أولا؟ مراحلها والمواقف منها؟ والرمزية بعد ذلك.

إلى جانب مفهومي التغير والاستعمار، هناك مفهومان آخران لا يقلان أهمية هما التقليد والتحديث أو العصرنة، ماذا نعني بكون غريس كان مجتمعا تقليديا؟ **société traditionnelle** وما هي الهندسة التحديثية التي حاول الاستعمار زرعها؟

نحن إذا أمام مفاهيم سوسيولوجية أملاها واقع البحث، هي:

التغير؛

والاستعمار؛

والتقليد؛

والحداثة. وهي كلها مفاهيم تستدعي التوقف عندها إن نظريا على المستوى المنهجي والإبستمولوجي، وإن وقائعيا وتطبيقيا على مستوى المجتمع المغربي بصفة عامة والقروي بصفة خاصة والواحي بصفة أخص.

البنية المفاهيمية للبحث:

التقليد التغير التحديث الاستعمار

تحت عنوان جد موح يطرح هنري مندراس **Hendri Mendras** إشكالية الإحاطة النظرية بالتغير الاجتماعي.[1] ويشخص القضية أكثر في مفهوم الصراع الطبقي الماركسي، كنظرية تفسر كل شيء ولا تفسر أي شيء، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لمفهوم التوجه **tendance** عند توكفيل [2]ويحذر من خطورة الخروج كلية من دائرة السوسيولوجيا إلى دائرة فلسفة التاريخ.

هل هذا يعني تطليق البحث النظري في التغير الاجتماعي و الذهاب إلى الوقائع والميدان رأسا؟ أم أن هناك مسلك آخر؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، يجمل بنا أن نفحص النقاش النظري الذي دار حول مفهوم التغير الاجتماعي، دون المفاهيم القريبة منه مثل الحراك الاجتماعي **la mobilité sociale** والإنحراف **la déviance** والهجرة **migration** والفوضى **anomie**. لأن العمل ليس نظريا.

1- Mendras, H. *Eléments de sociologie*, « une théorie de changement est-elle possible ?» p, 223. Armand Colin. 1975.

2- Mendras, H. *Eléments de sociologie*, « une théorie de changement est-elle possible ?» ibid, p, 223.

يعرف معجم السوسيولوجيا التغير الاجتماعي بأنه «تحول يطرأ على مستوى بنية زمرة تعتبر نفسها منظمة بما فيه الكفاية، وهو تحول من خصائصه عدم توازن مستمر في النمو أو في التحول».[1]

بذلك يضيف المعجم، «بأن التغير الاجتماعي يمكن أن يعتبر عاملا اجتماعيا، قد ينشيء الذعر والفزع، الشائعة، وأشياء أخرى.

كما أن التغير يمكن أن يدخل سوسيولوجيا في علل فهم المجتمعات، وتفسير حالاتها، وفي هذه الحالة يمكن أن نحدد:

أ- الإستمرارية أو الإنقطاع؛

ب- كثافة التغير؛

ج- أثره في الإنتقال من الكم إلى الكيف.. إنه في السوسيولوجيا على عكس اللسانيات، تختلط الساكرونيا بالدياكرونيا. إن المجتمعات تتغير، لكنها تحتفظ بتوازنها...»[2]

أما الحراك الاجتماعي فيبدو أنه أكثر وضوحا، فهو «تغير الوضع بالنسبة للحياة المهنية لشخص ما. إما قياسا مع وضع سابق له، أو مع وضع أبيه...»[3]

أما الخلل والفوضى والإنحراف فهي حالات أزمية، غير أنه وإن كان من المشروع أن نطرح قضية حدود السوي وغير السوي في التغير الاجتماعي فإن المقام لا يسمح به هنا.

وهكذا و دون السقوط في النموذج **paradigme** التطوري، وكذلك في النموذج الأنثروبولوجي الكلاسيكي، إن المجتمعات كلها، بما في ذلك المحلية، تتغير وتتحول[4]، لكنها لا تتغير ولا تتحول بمنطق تاريخاني أحادي التوجه والمنطق، وهذه أولية منهجية أساسية.

1- Sumpf, J. et Hugues, M. *Dictionnaire de sociologie*. Larousse. 1973. p, 43.
2- Sumpf, J. et Hugues, M. *Dictionnaire de sociologie*. Larousse.1973. p, 43.
3- Sumpf, J. et Hugues, M. *Dictionnaire de sociologie*. *Ibid,* p, 174.
4- Balandier, G. *Anthropo-logique*, Librairie Générale Française, 1985. *«* L'homme est aux prises avec le temps, et en ce sens, il n'existe pas de sociétés immobilles ou répétitive comme les postulait avec légéreté une ethnologie passeé.» p, 8.

إن التطورية تعتبر المجتمع الصناعي قطب التغير تجاوزا للتقليد والعتاقة والتوحش والبربرية، نحو الحضارة والعصرنة والحداثة، وهو نفس التصور الذي نجده عند سبنسر وموركان، بل وحتى ماركس وفيبر، رغم محاولة إعادة قراءة المجتمعات التقليدية والتأكيد على أهمية التاريخ في السوسيولوجيا، وكذلك إعادة النظر في مفهومي الحداثة والعصرنة[1]، وبذلك «يمكن أن نتحدث عن تطور للتطورية»[2] إن منطلق المجتمعات في التصور التطوري هو التقليد، أما مآلها فهو الحداثة، وبين اللحظتين أشكال بينية لابد من تجاوزها ولوقسرا، وهو ما تبرر به الماركسية الاستعمار كعنف- رحم للتغير والتقدم.

يلخص باديي بذكاء حالة الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية الكلاسيكية في قوله بأن الأمر لا يعدو أن يكون «تقليدا مجهولا وحداثة مبسطة»[3]

ما هو التقليد إذا وما هو التحديث؟ أو ما هي سمات المجتمعات التقليدية وما هي سمات المجتمعات الحديثة؟ وكيف يحدث التغير؟

يصف جورج بالانديي المجتمعات التقليدية كما تتصورها الأنثروبولوجيا الكلاسية، بالصفات التالية:

1 - «هي مجتمعات متطابقة مع النماذج المشتغلة وفق الوفاق الأسطوري.

2 - هي مجتمعات المحافظة والإجماع، حيث يقل مجال المعارضة والإحتجاج، كما أن هذه المجتمعات تملك آليات ناجعة لحل الخلافات، والتي تقلص من عوامل الإنحلال. هي بتعبير ستراوس، مجتمعات الإجماع.

3 - هي مجتمعات تكرر وتعيد نفسها باستمرار، وذلك بإعادة إنتاج مطلقة وبسيطة.

4 - هي مجتمعات خارج التاريخ، أو في هامشه على الأقل، مجتمعات باردة، في الدرجة الصفر من درجة الحرارة التاريخية.»[4]

1- Badie, B. *Formes et transformations des communautés politiques, ibid,* p, 600.
2- *Ibidem*, p, 600.
3- *Ibidem*, p, 600.
4- Balandier, G. *Anthropo-logique*, Librairie Générale Française, 1985. pp, 216- 217.

المحافظة والإجماع والتكرار وغياب التاريخ، هي إذا الصفات الأساسية للمجتمعات التقليدية التي يجب أن تتغير وتتحول نحو التقدم بدل المحافظة، والرأي بدل الإجماع، والإختلآف والتغير بدل التكرار، والتاريخ بدل الهامشية.

نحن إذا أمام تقابل شبكتين من القيم إحداهما سلبية والأخرى إيجابية.

ألا يمكن هنا أن نتحدث عن إسقاط مضاد للدارسين الأوائل للمجتمعات غير الغربية، حيث لم يكن الباحث يبحث في هذه المجتمعات الغريبة سوى عن ما ليس في مجتمعه؟ وأن على هذه المجتمعات أن تصعد نحو قطب العصرنة والتحديث؟

ليس هذا هو موضوعنا، إن الذي يهمنا هنا بالأساس هو مدى انطباق هذا البراديجم على الواحات المغربية قبل الاستعمار، غريس نموذجا؟

إن المتفحص المتسرع ليجد وبسهولة كل هذه الخصائص في غريس، فواحتنا كانت تعيد إنتاج نفسها باستمرار. اشتغل المقيمون بالفلح والتجارة، واشتغل الرحل بحراسة القوافل وغزو المقيمين في القصور، بل ويعتبر تكرار الغزوات الدوري على القصور ظاهرة اجتماعية وتاريخية جد ملفتة، الأمر الذي يزكي خاصية التكرار.

أما الإجماع فجد معقد هنا، إذ يمكن أن نتحدث عن إجماع فوقي عمودي على مستوى اللف والقبيلة، في الإقتناع بالعرف وبتطبيقه، حيث يصعب أن يتفرد أحد أو أن يغير مصيره، لكن هناك اختلافات جذرية في القيم والتوجه والسلوك عندما ننظر إلى المجتمع المحلي من زاوية التراتبية شبه المغلقة: الشرفاء والمرابطون، الأحرار البدو والمقيمين، ثم الحراطين. فتوجهات هؤلاء مثلا ومواقفهم من الاستعمار لم تكن منسجمة وموحدة، فبعض المستضعفين كانوا ينتظرون من يحميهم من الاستعمار الداخلي مثلا، وبعض التجار تعامل مع المستعمر في قصر السوق (الرشيدية الآن) لأن السلع كانت أعلى جودة وأرخص ثمنا، بل ولم تكن الواحة تنتج بعضا منها إطلاقا مثل السكر والشاي والثوب.

إنه مجتمع معقد، ليس في ذلك شك، متحول ومتحرك، ليس في ذلك شك أيضا، مجتمع اخترقه التاريخ منذ أقدم العصور، لكنه مجتمع أقل حركية وأقل انفتاحا إذا ما قورن بالواحات المجاورة مثل قصر السوق وتنغير، وهي ملاحظة قديمة حتى بالنسبة

لرحلتي الوزان ومارمول اللتين استثنيتا المرور بغريس، وكذلك بالنسبة لرحلتي شارل دوفوكو وديزيكونزاك.

إن خصوصية الواحات في العالم القروي المغربي أشد قوة هنا في غريس، فهي خصوصية داخل أخرى، وذلك نظرا للطابع الأطلسي لهذه الواحة، فإذا أمكن أن نتحدث عن اختراق مخزني قوي لتافيلالت، فإن تواجد القبيلة بغريس أكثر قوة، لكن ذلك أيضا نسبي إذا ما قورنت باتحادية أيت عطا المنشقة كلية. الأمر الذي يزكي اتصال غريس بالمجتمع المغربي العام عبر السلطة المركزية وعبر الشرع الذي تقضي به القصور في منازعاتها، رغم كون العرف الأمازيغي، يبقى المتحكم في الوادي كله من المنبع إلى الصحراء.

يرى باديي بأن خصائص التقليد تتلخص في:

1 - التجانس **homogénéité**

2 - التضامن المحلي القوي **forte solidarité communautaire**

3 - المراقبة الاجتماعية القوية **puissant contrôle social**[1] وذلك مقابل التعقد والإختلاف والتعاقد في المجتمعات الحديثة.

ولو فحصنا خصائص التقليد هذه مطبقة على غريس، لحصلنا على نتيجتين معاكستين، إذ هناك شبه تجانس على مستوى اللف والقبيلة والإخس خصوصا، لكن هناك عدم تجانس صارخ على المستوى الإثني. هناك تضامن قوي، لكن متى حضر الغريب، وإلا انحل التضامن إلى تناقضات داخلية.

وتبقى المراقبة الاجتماعية أهم مؤشر في مجتمع الواحة، حيث يصعب أن ينفلت المرء من الجماعة وأن يشكل له رأيا، فالسلوكات مسطرة مسبقا، وما على المرء إلا أن يسلكها، إما بالتنشئة أو الجزاء. رغم كون إمكانية الرقي وتغيير الوضع الاجتماعي ليس مستحيلا، بالإجتهاد والكد تارة (إستصلاح الأرض مثلا) أو بالعنف والقوة تارات، أو بهما معا، وأقصى ما يمكن أن يصل إليه الغريسي «أمغار نوفلا» قائد الحرب القبلية بالنسبة للبدو «وقايد السلطان» بالنسبة للمقيمين، وحتى بالنسبة للبدو أحيانا.

1- Badie, B. *Formes et transformations des communautés politiques, op- cit*, p, 600.

هذا هو المجتمع التقليدي الغريسي، وهذه مواصفاته، ولنا أن نشير هنا، إلى أننا نستعمل التقليد بمعنيين، الأول إيجابي ويقابل **tradition** ويعني ما صمد لتغيرات الزمن واستحق البقاء، دون حكم قيمة، وهو ليس تجانسا مطلقا وليس ركودا كاملا ولا توحدا.

أما المعنى الثاني فيبقى سلبي، ونعني به العتاقة والبلى، أي ما يقابل **archaïsme** وهو ما حاولت الأنثروبولوجيا الكلاسيكية توصيفه رغبة في تجاوزه.

ما هو الاستعمار؟ وما هي التغيرات التي أحدثها في واحة غريس مقارنة مع مناطق أخرى؟ وما هي الآليات التي شغلها من أجل ذلك؟ وهل كان فعلا عامل تحديث؟

الاستعمار قبل كل شيء حكم وسلطة تريد تأبيد السيطرة، وهو حكم وإن تبدى بسيطا ويعتمد العنف، فقد حاول أن يغطي جميع مناحي الحياة الاجتماعية. يعلمنا بيير بورديو» أن الهيمنة كثيرا ما تمارس بالعنف الرمزي. إن الحكم لا يتخذ أشكال السلطة بكل آلياتها التبريرية فحسب، لكنه يفرض مقولات التفكير، وتقطيعات الواقع المتضمنة لإمكانيات الفعل في حدود ضيقة بالنسبة للذين يقبلونها، إن المهيمن عليهم، **les dominés** لا يخضعون تحت الخوف من العقوبات، أو تحت ضغط الحسابات التي تريهم أين توجد مصلحتهم، إنهم يخضعون لأنه يصعب عليهم حتى أن يتخيلوا تأويلا لوضعيتهم غير التي وهبت لهم، أو أن يخترعوا دلالة جديدة لها، كما أنه لايمكن لهم قبل كل شيء، أن يخترعوا أو أن يتمكنوا من استغلال أدوات وقواعد الحق والأخلاق واستعمالات اللغة.»[1]

من هذا المنطلق يعتبر الاستعمار، كأي حكم وسلطة وهيمنة، ظاهرة معقدة يتجاور فيها السياسي- الاقتصادي مع الاجتماعي- الثقافي بالذهني، الأمر الذي يحتم البحث في مجالاته وتمظهراته وأفعاله.

يميز جورج بالانديي التغيرات التي أحدثها الاستعمار على القارة الإفريقية بخمس ميزات هي:

1- Reynaud, J-D. Restituer aux hommes le sens de leurs actes, hommages à Pierre, Bourdieu. In, *Revue française de sociologie*, 43_1.2002. I-V. pp,I-II.

1 - تشويه الوحدات السياسية التقليدية

2 - نزع الصفة السياسية

3 - تصدع الأنظمة التقليدية لحصر السلطة

4 - تعارض نظامي السلطة والنفوذ

5 - نزع صفة القداسة جزئيا عن السلطة[1]

استئناسا بهذه التغيرات، وإن كانت المجالات مختلفة، يمكن أن نجد كثيرا من هذه الميزات في واحتنا بتعديلات واختلافات طفيفة.

في غريس، وبفعل سياسة التوطين الكولونيالية، لم تعد القبيلة سياسيا سوى اسما لتجمع سكني فوق تراب له حدوده، كما أن الأمغار لم يعد سوى قائدا موظفا، واقتصر العرف على وظيفته البدائية، فك النزاعات.

أما الجماعة التقليدية المنتخبة، فقد تفككت لصالح «أيت المجلس»، وهي جماعة معينة تمثل الأعيان، وبذلك» حول الاستعمار كل مسألة سياسية إلى مسألة تقنية مرتبطة بالأهلية الإدارية.»[2] وبذلك أصبح القايد أقل مسؤولية تجاه رعاياه، واستتب الإنحراف المتجلي في الفساد والرشوة والتملق والزلفى، وانعدمت الثقة وتكسر الولاء. هل هي بداية الولاءات العصرية، المعقدة والمختلفة، بدل الولاءات التقليدية والبسيطة؟[3]

كما أن السلطة ذات النظام القبلي بدأت تترك مكانها للبيروقراطية، وامتزج «البيرو»، مكتب الشؤون الأهلية، ب«الفيلاج» في أذهان الساكنة.

1- جورج بالانديي.-الأنتروبولوجيا السياسية، ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1990، صص، 194 - 198.

2- جورج ، بالانديي، نفس المرجع، ص، 195.

3- Watier, P. *Le savoir sociologique op.cit*, « il n’y a peut-etre pas d’autre identité pour l’individu moderne que celle correspondant momentanément à un cercle social, à un partage de convictions. Elle alors la somme des fidélités à venir et de celles de passé».

ولعل أهم تغير حدث في الواحة، هو النزع النسبي لصفة العرقية والإثنية عن التراتبية. قانونيا من الناحية المسطرية، وبفتح الأوراش خصوصا. الأمر الذي مكن الخماسين من الهروب من الحقول نحو العمل المأجور والهجرة، ومن ثمة الخلخلة العميقة لنظام الملكية. الأمر الذي شجع الفئات الدنيا على تغيير وضعيتهم ليصبحوا مالكين بعدما كانو معدمين.

لكن، ورغم كل ذلك عملت السلطات الأهلية على تأبيد سلطة من كانت له الريادة التاريخية قبيل الاستعمار، المحاربون يشكل أخص. كما تم تحييد دور الشرفاء والصلحاء والمرابطين، ودورهم التفاوضي، وتم نوع من التعايش بين نظام الطبقات المغلقة التقليدي مع النظام شبه الطبقي الحديث.

كما تشكلت سلوكات فصامية تلعب على مستويين، أحدهما داخلي حميم، لازالت تشتغل فيه القيم التقليدية، في القرابة والقصرو الحقل، والآخر خارجي يتجه نحو التحديث، في الطريق والفيلاج والسوق.

نريد أن نطرح هنا قضية أخرى، تطبيقية هذه المرة، وهي إشكالية علاقة القرى بالمدن، ومدى تدخل الاستعمار في مناطق أخرى من المغرب وخارجه.

تنطلق النظرة الأولى من الفكرة المسبقة المبنية على أن المدن تعيش بشكل طفيلي على القرى **le parti-pri urbain**[1] وأن الغنى والرفاهية من نصيبها، والفقر والعوز من نصيب القرى، في حين أن العين الفاحصة، رغم ضرورة أخذ هذا المعطى بعين الإعتبار، تنظر إلى الأمر بشكل أكثر تعقدا. وقديما كان يقال في الواحات، إن سنة جيدة في تافيلالت، كفيلة بتموين فاس والسهول، لكن مثل هذه السنة في فاس والسهول غير كفيلة بإغاثة تافيلالت. رغم أن الفيلالين والغريسيين الآن كثيرا ما يتفكهون، بكون «غار زعبل»، وهو نفق جبلي بين مدينة»الرشيدية» ومدينة»الريش»، لو أقفل لمات الناس هنا جوعا.

1- Chaléard, J-L, Dubresson, A. *Villes et campagnes dans les pays du sud, Géographie des relations*. KARTHALA, 1999. Introduction : nouvelles relations, nouvelles approches ? p, 9.

هو واقع معقد إذا، واقع يفرض إعـادة النـظر في الأمر، دون السقوط في **le parti-pri rural-**[1]، حيث يجب التفكير في فرص الشغل التي توفرها المدن للقرى، وإلى الجامعات والمدارس العليا التي يتعلم فيها أبناء القرى، وإلى الأفكار التي يستوردونها منها، حالة واحة غريس وكلميمة بالذات جيدة هنا، حيث استطاع المتعلمون أن يغيروا من مستوى عيشهم وعيش أسرهم.

صحيح أن بعض الواحات تعيش الآن نوعا من الإزدهار النسبي، وذلك باستثمار أموال الهجرة في بعض الزراعات المسقية (فكيك وتنغير) أو في السياحة (تنغير). وصحيح أيضا أن بعضا منها تجاوز الحدود الوطنية نحو العالمية، سياحيا وسينمائيا (وارزازات)[2]. ورغم ذلك فجل الواحات تعاني من مشاكل عدة على رأسها التصحر، والذي قد يسببه الإستثماروالاستغلال الوحشي للماء، كما هو الأمر في واحة «فركلة» توأمة غريس، والتي تعتبر الآن كارثة بيئية بكل المقاييس.

إن الأمر ليس لا ببساطة **parti-pri urbain** ولا **parti-pri rural**، فالغنى الفاحش مثلا لبعض أعيان الواحات يشكل مفارقة إذا ما قورن بالفقر المدقع لساكنة السكن غير اللا ئق في المدن.

ورغم كل ما سبق، فإن الواحات، غريس أساسا، تبقى استثناء من النا حية الاستعمارية وهندستها، بالمعنى الضيق والإقتصادي للكلمة، وهي التي تهمنا هنا، إذا ما قورنت بمناطق أخرى أحدث فيها الاستعمار خلخلة عميقة في أشكال التنظيم الاقتصادي والاجتماعي التقليدي، كما هو الأمر في مناطق غنية ومدن عريقة.

ففي الحاشية الجنوبية لهضبة سايس مثلا تم «ابتزازأطراف شاسعة من الأراضي الزراعية والماء، واقتطاعهما من الممتلكات الجماعية.

- تثبيت وحصر السكان في مناطق أقل ملائمة للإستغلال.

1- Chaléard, J-L, Dubresson, A. *Villes et campagnes dans les pays du sud, ibid*, p, 13.

2- Bahani, A. La crise des structures socio- économiques dans les palmeraies du Draa- Maroc, in, In *Mutations socio-spatiales ans les campagnes marocaines*. Publications de la faculté des lettres et des sciences humaines - Rabat. Séries: colloques et séminaires, 1994. n° 28. p, 37

رغم كونه يؤكد على أزمات زراعية واقتصادية ومائية، ص، 50..

- التملك الفردي للأرض والماء.

- انحلال بنية التنظيم العرفي والجماعي.»[1]

لم يحدث مثل هذا في غريس لأسباب نذكر منها، بعد البلدة عن الأسواق والمدن الجاذبة للمعمرين. تروي الرواية الشفوية تواتر عدد هائل من الموظفين الفرنسيين وضباط الشؤون الأهلية على مكتب كلميمة نظرا لعدم رغبة استقرارهم بها لمدد طويلة. ولم يكن يستقر جلهم بها سوى السنة أو السنتين. إضافة إلى الفقر النسبي للمنطقة، فرغم مياه ساقيتها الشهيرة والتي لاتعرف الجفاف، فالمساحة المزروعة محدودة، كما أن المدة الزمنية التي قضاها الإحتلال بالمنطقة جد قصيرة، ولم تسعف استثمار المعمرين.

بالنسبة لمدينة عريقة ك«سلا»، يؤكد كنيث براون أن الاستعمار خلخل بنيتها الاقتصادية، حيث أغنى الأقلية وأفقر الأغلبية، وأن منافسة البضائع الأجنبية للصناعة التقليدية كانت جد قوية[2].

أما فكيك التي تشبه غريس في أكثر من وجه، يؤكد بنشريفة بأن الاستعمار عرى فيها الدونية الاقتصادية للواحات، وذلك أمام الاقتصاد الرأسمالي القوي والنمو الدمغرافي.[3] ورغم ذلك فقد استفادت فكيك من استثمارات أموال الهجرة ومن التضامن الثقافي، إذا ما قورنت بكلميمة.

في «أوطاط، ميدلت»، وهي منطقة قريبة من غريس وتنتميان لنفس اللف، أيت يافلمان، تروي أمينة عيشور الدور الذي لعبته التجارة للتهييء للعملية الاستعمارية نفسها.[4] كما تروي وبشكل يذكر بفيلاج كلميمة، كيف تم توطين ساكنة جديدة وغريبة وبتحول في العادات وكيف انفجر القصر لصالح منزل جديد، لكنه غير مريح، وكيف بدأ

1- بوريال، محمد. **الأنظمة السقوية العتيقة وتحولاتها الحديثة**. ص، 65، ندوة التحولات الإجتماعية المجالية في الأرياف المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1994.

2- Brown, K. *Les gens de Salé*. EDDIF, 2001, pp, 187, 209.

3- Bencherifa, A. *Problèmes de développement dans les oasis marocains quelques tendances récentes.Op- cit*, p, 13.

4- Aouchar, A. *Colonisation et campagne berbère au Maroc*. Afrique Orient, 2002. p, 107, 108.

الرحل يتركون مهنتهم القديمة نحو مناجم «ميبلادن» و«أحولي».

تشابه كبير بين ميدلت وكلميمة، لكن تواجد الأولى في الطريق الرئيسية بين تافيلالت و مكناس، وكذلك استغلال المناجم بميدلت، كل ذلك وهبها ازدهارا جلب لها ساكنة جديدة أوروبية ويهودية لم تعرف كلميمة مثيلا لها.[1]

هكذا يتبدى أن الاستعمار تعامل بقوة وبعمق مع المناطق الغنية والمدن، وبشكل أقل قوة، لكن وباستثمار إن وجد الريع، مناجم ميدلت. وتركت المناطق البعيدة لقدرها. لكن دون نسيان كون عامل خلق الفيلاجات وحده، وكذلك توجيه الطريق نحو الأطلسي، كفيلان بخلق دينامية جديدة في تقسيم الشغل خاصة، وظهور العمل المأجور الذي سيمهد للهجرة، التي بدورها ستخلخل البنية التراتبية للواحة، بل وخلق توجهات جديدة وأشكال أخرى للثقة والولاء والثقافة السياسية الجديدة نحو الوطني بدل القبيلة. عامل ميكانيكي منفي كان أول من أدخل الوطنية إلى كلميمة، وبعده بعض المعلمين، وبعدهم التجار، بعد ذلك يتم الانخراط في المقاومة وجيش التحرير والأحزاب الوطنية تحكي الرواية الشفوية بتواتر كبير.

1 - *Ibid*, pp, 117, 121, 129, 132,185.

الفصل الثاني
تحولات المجال والسلطة

تنتمي واحة غريس، سياسيا وفي التمثل المجالي الكولونيالي، إلى مغرب السيبا والعرف والقبيلة مقابل المغرب المخزني، مغرب المدينة والشرع. وقد فهم المشروع الكولونيالي، وبعمق علمي، البنية القبلية العتيقة للمنطقة، وذلك على الأقل منذ تقارير رحلتي دوفوكو (1883) وديزيكونزاك (1905)، تلك البنية المؤسسة على المورفولوجيا أكثر من الفيزيولوجيا، والتي تحاول أن تعيد إنتاج ذاتها عبر اللفين، أيت عطا وأيت يافلمان (أسس الأول في القرن 16 لصد هجمات بني معقل والثاني في القرن 17 كحاجز بشري سطرجه المخزن ضد اللف الأول.)

إن غريس التي وصفها الرحالة منطقة وسطى بين درعة وتودغة من جهة، وتافيلالت ومدغرة من جهة ثانية. لقد تم اقتسام اللفين لقصور المنطقة كلها وتم تحالف شرفاء سجلماسة مع أيت يافلمان وبدا توجه واضح لأيت عطا نحو الصحراء، وتوجه أيت يافلمان نحو واحات ماقبل الصحراء تجاه الجبل. وتمظهرت غريس وفركلة كواحتين متواضعتين لم يمسهما التاريخ، السياسي منه بالخصوص، كثيرا بقدر ما فعلت فيهما الجغرافيا المحددة للشخصية الكفافية عيشا وثقافة ومزاجا.

إن غريس، تاريخيا، نقطة عبور من وإلى تافيلالت والأطلس وسهول ما ورائه، «أزاغار».. الأمر الذي جعلها محط نزاع بين الصحراء والجبل على الدوام. وهي ميزة ثقافية خاصة يمكن اعتبارها الرأسمال الأنثروبولوجي موازاة مع الرأسمال الرمزي والتاريخي لتافيلالت ودرعة (من الأولى انطلقت الدولة العلوية ومن الثانية انطلقت الدولة السعدية.) ورغم كل ذلك فعلاقة الجوار مع تافيلالت أربك التمثل الاستعماري المجالي نحو الواحة، وذلك باعتبارها جزءا من تافيلالت كإقليم، مع الحفاظ لها بخصوصيات تربطها بالجبل أكثر من الصحراء إذا نظر إليها إثنيا. وهي الخصوصية التي لم يعرها إعداد التراب الحالي قيمة.

توزع الوادي إذا نفوذ القبيلة وزعمائها وكذلك نفوذ رجال زوايا أفذاذ ومهديون[1] شكلوا آخر انتفاضة القرون الوسطى. وانزوت كل ساكنة في قصرها -الجمهورية - ناسجة فضاءها الخصوصي والذي لا تجرؤ ساكنة القصور الأخرى على انتهاك حرمته. ووظفت ذكاءها في تدبير دقيق للماء وفي تأثيث اليومي رمزا وثقافة وإبداعا في المسرات كما في الملمات. كما ابتدعت أعرافا مطابقة وعضوية تضبط بها المعاملات. وبكل ذلك ساد انسجام كان ممكنا أن يتأبد وذلك بعطالة فائقة لا تحتمل الإزعاج، لولا التدخل العنيف للأجنبي.

لقد كان المجال المخزني فضفاضا يشمل دار الإسلام كلها، وكذلك كان مجال اللف والقبيلة، حيث السلطة لا تعني سوى معناها الضيق من الأذى والعسف ومن ثمة مزاجيتها وسرعة عطبها. ورغم تمظهر علاقة المخزن بالقبيلة صراعية وتنافرية فقد كان اتجاههما المجالي واحدا نحو العمودية أساسا، الوادي من النبع إلى المصب. الطريق: شمال /جنوب، بقايا طرق الذهب والعبيد. كما أنه طغت المرجعية الإسلامية، دار الإسلام /دار الحرب على التصور المجالي التقليدي كله، ومن ثمة كون الأمة بشرا وليست ترابا ولا وطنا.[2]

لا يحمل المجال الغريسي إذا نظر إليه من الزاوية المادية الصرفة أية قيمة استعمارية. إلا أن مثل هذه الرؤية لا يمكن أن تكون إلا ساذجة لا تستطيع قراءة الرهانات إلا كمردود عملي مباشر. في حين أن الفعل الكولونيالي فعل شمولي توتاليتاري وراءه تمامية متكاملة ومتطرفة. ولا نعني هنا الإتساق والفعالية بقدر ما نريد التأكيد على الطبيعة المتوهمة في امتلاك الحقيقة، تلك الطبيعة التي وإن ساعدت على التحفز والحماس فإن نتائجها كانت باهظة الثمن. لقد دفع الغرور والإحساس بالتفوق وشعور الإستعلاء[3] المحتل إلى إحكام القبضة على شعب فقد المبادرة التاريخية ومن ثمة «استحق» مصيره ووجب ترويضه وإرغامه على الإستسلام.

1- أنظر مقالنا: المهدوية. الفتنة. الجهاد، وإنتاج النخب التقليدية. مجلة فكر ونقد، عدد 28، مارس 2000، ص. 25-30.

2- أنظر بحثنا لنيل دبلوم الدراسات العليا: الواحات المغربية قبل الإستعمار، غريس نموذجا. كلية الآداب، الرباط، 1996.

3- Rocher, G. *Introduction à la Sociologie Générale*, Tome III, Le Changement Social, Ed. Points, 1968, pp. 226-232

لقد تراوح الفعل السلطوي الكولونيالي بين قبض اليومي حتى الإمتلاك التام والكامل للسلطة وممارستها وتدبيرها مرورا بجني واستنزاف ريع العملية برمتها عينا ورمزا، آنيا أو مستقبليا، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

إن امتلاك «المغرب غير النافع» كله، ليدخل ضمن الريع غير المباشر والمستقبلي، إذ ب«التهدئة» يزرع المنطق الحضاري المرغوب فيه تمهيدا للفائدة وخلق التبعية تأبيدا للهيمنة والمفارقة التاريخية.

ذلك هو السياق التاريخي والمجالي العام الذي يمكن من فهم عملية زرع المدينة الحديثة، الفيلاج، في غريس.

لم يكن تعامل السياسة المجالية - المعمارية وإعدادها للتراب مع المجال التقليدي المغربي موحدا، فقد كان تعاملها مع الحاضرة الإسلامية مثلا، قاسيا حيث عملت على «الإحاطة بها، كما أنها عنفت المتاهات لتفضي للخارج وتفصح عن حميميتها وذلك كله بغية المراقبة وفق مجال هندسي ومقروء».[1]

أما بالنسبة للمجالات الأخرى، الجبال والسهول والسواحل والواحات الصحراوية وماقبل الصحراوية، والتي تهمنا هنا بالأساس، فقد ابتكرت السياسة المجالية الكولونيالية إنشاء مدن وقرى «فيلاجات» جديدة زرعتها في المجال القبلي زرعا انبنى على معايير وشروط أساسية. وقد أنشأت تلك المراكز الكولونيالية أساسا لتيسير التواصل ونشر القيم المجالية الحديثة والاستعمارية دون الحاجة إلى ذكر وظيفتها الإستنزافية. لقد كان خلق المدينة الحديثة آلية سوسيولوجية كولونيالية وضعت أساسا لمزاحمة الأيديولوجيا القبلية من أجل نسفها قطاعيا حفاظا على وظيفتها الأنثروبولوجية وتحييدا لدورها السوسيولوجي تمهيدا لتنقيل المجال من القبيلة كوحدة مورفولوجية عضوية وفاعلة إلى القبيلة كوحدة إدارية. والولاء من القرابة كمجال رمزي إلى المجال كموطن ترابي.. وكان طبيعيا أن يحدث كل ذلك بشكل مشوه يخدم مصالح المعمر والمتروبول أولا، وقد يبقي على هامش من «الأنوار» ووسائل التحضر ثانية كنتيجة من نتائج مكر التاريخ.

1- Jolé, M., Khatibi A., Martensson M. - Urbanisme, Idéologie et Ségrégation: Exemple de-Rabat, In *Annales Marocaines de Sociologie*, 1970, p. 37.

كيف كان الأمر بالنسبة لغريس؟ وكيف تعاملت السياسة الأهلية مع القصر كشكل معماري ومجالي تقليدي؟ وكيف كانت مظاهر التهيئة الجديدة؟

ليس هناك، فيما يبدو على الأقل، أي مبرر كولونيالي تعميري لزرع فيلاج كولميمة، حيث غياب نواة حضرية يمكن منافستها أو ريع زراعي قد تؤسس عليه بورجوازية محلية تنقيلا للتجربة الفيودالية، كما أنها لم تكن محطة تجارية يمكن أن تذر عوائدها فوائد على المعمرين، ولم يكن بها منجم يمكن استغلاله ومن ثمة بناء نواة مدينة عمالية يمكن أن تصبح مدينة بالمعنى العام بعد ذلك.

ما الداعي لزرع الفيلاج إذا ؟ ليس من جواب سوى العمق المجالي الإستراتيجي العسكري، والذي سيصبح إداريا فيما بعد، للموقع كبؤرة تمفصل قبائل الأطلس: أيت يافلمان مع قبائل الصحراء: أيت عطا. إنه المبرر الوحيد دون نسيان المؤهلات الطبيعية والإيكولوجية، صبيب الوادي خصوصا.

ومع أن البعد العسكري كان حاسما في وضع اللبنات الأولى للمدينة على الطراز الأوروبي، إذ أول ماشيده المستعمر كانت مساكن الضباط وبعده الحي الإداري، ومع أن الفوائد المباشرة مادية كانت أم سياسية لم تكن بالكثافة الكافية لإقامة مستعمرة، مع كل ذلك فإن تهييء المجال الحديث لم يحصل في فراغ، رغم أن التجزئات السكنية الأولى كانت فعلا في أرض بوار.

لقد كانت هناك تجربة ثقافية تقليدية شكلت مقاومة رمزية للتنفيذية الكولونيالية التمامية. إذ هناك التجربة التهييئية التقليدية، القصر، كما كانت هناك التجربة الترشيدية العريقة للأرض والماء.. كما يمكن أن نتحدث عن الأثر الفيلالي الثقافي والتجاري، رغم خفوته.

كيف تعاملت المجالية الكولونيالية إذا؟ وكيف تعامل مشروعها التحديثي مع هذا الإرث المجالي التقليدي ؟

لقد تعامل الفرنسيون مع القصر بالتجاهل المطلق، وهو تعامل لا يعني الغفلة أو عدم الضبط أو التهور، بقدر ما يعني الإحتقار والإزدراء الذي يمارسهما بالنيابة موظفون

محليون من الأهالي أنفسهم على الناس عبر جميع أشكال الإقصاء والتحجيم وخلق الخصومات وإثارة النعرات، وذلك بأساليب الإنارة والتفريد والدسائس والمناورة ونشر الهلع وخلق الجبن وتفشية الزبونيات، وتكونت، كنتيجة لكل ذلك، نفسية مستكينة، دون نسيان مقاومة كان لا بد أن تنبعث من رماد.

إن هذه الساكنة التي يأكل بعضها البعض، لا تستحق التهيئ، ومن الأفضل لها أن تبقى في فقرها وأن تحافظ على عتاقتها وراء الأسوار. الأمر الذي أنتج عقد الدونية لديها وخلق أسوأ الصور لذاتها عبر وصمها بالبلى صنعا للتبعية تجاه النموذج الغازي والمهيمن.

لقد كان التعامل الكولونيالي مع القصر أشد عنفا وقساوة من تعامله مع الحاضرة الإسلامية. فهو لم يحاول اختراق القصر أو تفجير حميميته، بل ولا حتى لمسه على الإطلاق. لقد تركه، وببساطة، لقدره وحاله القروسطي وأنشأ فيلاجا جديدا ومستقلا لا يكاد يربطه بالقصر سوى بعد الإدارة والمراقبة.

أخيرا، لقد عملت الهندسة الكولونيالية، فيما يبدو، على أن تناقض التوظيف القصري للمجال، مكانيا وهندسيا وتصوريا وتدبيرا للزمن. لقد عملت الهندسة الأهلية على القطع مع التصور القصري للعالم، القطع مع الدائرية والأسوار وتكرارية الأزقة التي وظفت في اصطياد الظل وتبديد الرياح وتضليل العدو وتسهيل التواصل الحميمي، الجسدي حتى.

لقد قطع مع كل ذلك بالخطية والتدرجية والمنظورية تجاوزا ل«الخلط» و«الغموض» و«الظلام» و«اللامعنى» و«الكسل» و«الخواء» و«الموت» نحو «الإنتظام» و«المعقولية» و«الحياة». ليصبح للزمن مدلول كمي بدل الزمن الكيفي الدوري عبر الفصول وتكرار الفعل الطبيعي.[1]

لقد سبق وأن أشرنا إلى طبيعة السلطة المتشظية مجاليا في غريس، ذلك التشظي الذي تبدى فيما أسميناه بظاهرة القواد الصغار مقارنة مع القواد الكبار في الأطلس الأعلى

1- Jolé, M. *et al., ibid.,* p. 36.

الغربي. وإذا كانت الملاحظة هذه تبدو بدون قيمة، فإنها تفسر كثيرا من الصعوبات التي لقيها جيش الإحتلال في إحكام القبضة على الأطلس المركزي برمته والأعلى منه بالخصوص وغريس بالأخص (آخر معارك الإحتلال غريسية، كردوس وبادو سنة 1933).

إن الديمقراطية المحلية، الجماعات التمثيلية، وإن كانت جد مساعدة على التفرقة ومن ثمة سهولة الإنقضاض فإنها بطبيعتها لا تساعد على توحيد المخاطب، ومن ثمة الفشل السياسي الذريع أمام حتى القبائل المعروفة بولائها القديم للمخزن.[1] وهو أمر فهمته الإستراتيجية الإحتلالية عندما استعملت أساليب أكثر عسكرية وقسوة ومباشرة من الأساليب السياسية والإغراء.[2] يقول الجنرال هوري عند معركة غريس - تاديغوست مقارنة بمراكش: «... ليس الأمر كذلك بالنسبة لغريس وتاديغوست - البلاد المنشقة مائة بالمائة - حيث لا يمكن تدجين الناس هنا بالساعفات والأموال».[3]

أمام هذا الوضع الذي زادته الطبيعة المتحركة للبدو تعقيدا، وأمام التضاريس ذات التنوع الشديد، وأمام مناخ جد قاس سيفرض الإحتلال استراتيجية الإحاطة بدل الدحر والقهر التام، والإذلال بدل المساومة.[4] ولعل مايثبت ماذهبنا إليه هنا من قساوة ووحشية الإحتلال استعمال المدرعات هنا لأول مرة[5].

1- هذا ما صرح به الجنرال كيوم نفسه، أنظر:
Guillaume, A. (Général).- *Les Berbères Marocains et la Pacifacation de l'Atlas Central (1912-1933)*. R. Juliard Seguana. Paris. 1946. « La diplomatie se conçoit avec des chefs disposant d'un certain pouvoir. elle est sans objet avec des assemblées démagogiques, dans lesquelles les éléments les plus irréductibles ont toute chance de faire prévaloir leur point de vue et dont aucun membre n'est qualifié pour représenter la communauté et parler en son nom. A Marrakech, en gagnant à notre cause les grands caïds, nous soumettons, ipso facto, à notre autorité d'immenses territoires. »

2- *Ibid.* « Mais, dans l'ensemble, sur le front de l'Atlas Central, la politique d'attraction, pratiquée par une patiente opiniâtreté par les officiers des affaires indigènes, demeure vouée à l'insucées. ». Même page.

3- Hure (G/A). *La Pacification du Maroc, dernière étépe. 1931/1934*. Berger LEVRAUX. 1952. P. 20.

4- Guillaume, A. (Général). *Les Berbères Marocains... Ibidem.* «C'est dans cette région que la résistance s'est montrée la plus opiniâtre, la plus acharnée, favorisée par l'obstacle exeptionnel de la montagne berbère» p. 9

5- Hure (G/A). *La Pacification du Maroc... Ibid*. p. 25.

I - في سياق الملاحظة

يصعب عمليا الفصل بين الملاحظة والمقابلة في البحث الاجتماعي الميداني[1]. فملاحظة ما هو قابل للملاحظة **l'observable** الفيلاج هنا، كتهيئته وشكل انتظامه المعماري كمنتوج كولونيالي بامتياز. إن ملاحظة مثل هذه المجالات تساعد الباحث، علاوة على وضع المتلقي في الصورة، على تحديد مخبريه مثلا. فالإهتمام بمعمار مكتب الشؤون الأهلية هو الذي أوحى باختيار المخبر - المفتاح، قاضي كولميمة والذي اشتغل ككاتب ضبط في المحكمة العرفية الكولونيالية منذ تأسيسها. وهو المخبر - السوسيولوجي الهاوي الذي استطاع بحسه الاجتماعي وبحنكته وتمرسه بالأعراف أن ينير لي كثيرا من زوايا الفعل الكولونيالي في المجال الغريسي. كما أن الإنتباه البصري لشكل المعمار ومادة بنائه هي التي فرضت الرجوع إلى من ساعد في البناء.

أما المقابلة فكثيرا ما تسلح الباحث في الذهاب إلى ميدان الملاحظة أو العودة إليه لضبط التوصيف أو تغييره بغية الدقة في التفسير أو وضع الفروض. فالأخبار حول حملة السلطات الاستعمارية ضد المجاهد "زايد احماد" هي التي أثارت ووضحت الأثر المجالي الكولونيالي الأوحد في قصر كولميمة، حيث أقامت ضابطة الشؤون الأهلية ممرا دائريا حول سور القصر يمكن العسس من الحراسة الليلية حتى لا يتسلل زايد أحماد أو أحد مساعديه من المزرعة والبساتين نحو القصر، حيث كانت البساتين في الأصل ملتصقة بالسور مباشرة كما هو الأمر في جل قصور الواحات. والملاحظ غير الحذر لن يفهم ممر الأمن هذا وربما حاول تفسيره برغبة إدماج التهيئة الكولونيالية للقصر، وهو أمر لم يكن واردا في استراتيجية إعداد التراب الاستعماري. لقد عملت الإدارة "التحضيرية" على التهميش المطلق للقصر وحاولت الفعل فيه على مستويات أخرى سلطوية ورمزية أساسا.

هي أمثلة من بين أخرى توضح العلاقة الجدلية بين الملاحظة والمقابلة بل والوثيقة حتى تبنى الأوصاف الملائمة شيئا شيئا ولا يتم التحرير إلا بعد التعديلات والتشطيبات بل وإخفاقات قد لا تجد حلولا وتبقى بياضات.

1- غيفليون، رودولف وماتالون بنيامين.- البحث للإجتماعي المعاصر، مناهج وتطبيقات. ترجمة د. علي سالم، منشورات مركز الإنماء القومي. بيروت، 1986. ص. 16.

إن علاقة الملاحظة بالمقابلة توضح ميدانيا تهافت النظرية الوضعية في اعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء. ومن هنا وعينا بأهمية الفهم والتمثل والرأي والموقف بل والإنفعال والحماس، دون السقوط في فجاجة اليومي.

إن العلم الاجتماعي، وبذلك، يجب أن يستضمر الميدان استقرائيا وأن ينمذجه مفاهميا وأن يعود إليه بتفاصيله لقراءته وفق مؤشرات ومعايير ومفاهيم تخترق العمل كله وإلا كنا بصدد الإنشائية.

أخيرا، وليس آخرا، لجأنا كما هو الأمر في المقابلة إلى الملاحظة غير المباشرة. وهي تقنية ضرورية يستلزمها الفهم واعتبار الظاهرة الإنسانية معقدة وذلك انطلاقا من الممكن الإدراكي وتداخل وتعدد العوامل. إن الإستنجاد بملاحظة ملاحظ آخر كثيرا ما تحقق ليس المقارعة بل استنطاق الزوايا المسكوت عنها والتي لا تستطيع الملاحظة المباشرة إماطة اللثام عنها.

إن الملاحظة وإن كانت تبدو محايدة ولا تنتج سوى الوصف يمكن أن لا تكون سوى تمثلات الباحث، وتلك أسوأ أنواع الملاحظات[1].

إن أول ما يسترعي انتباه الباحث في التحولات الاجتماعية التي طرأت على الواحات أثناء الاستعمار هو الفيلاج كمدينة - فطر زرعت في جسد غريب عنها وغريبة عنه.

فرغم كون الواحات عرفت أشكالا شبه حضرية للإستقرار، ورغم اعتبارها أعلى مستويات البدو وأدنى مستويات الحضر بتعبير ابن خلدون، رغم كل ذلك فالفيلاج شيء جديد تمام الجدة وغريب تمام الغرابة.

1- كابلوف، تيودور.- البحث السوسيولوجي. تعريب نجاة عياش. تدقيق غسان سلمان. دار الفكر الجديد. بيروت. 1979. ص. 124.

II - الفيلاج وإعداد التراب الكولونيالي

تنكشف للملاحظ بقع تهييئية بارزة هي: بقعة مجال الإقامات المترفة وسط الحدائق والحقول، ثم بقعة مجال المكعبات الذبالية، إقامات الساكنة الشعبية. وبين المجالين ينتصب جسد ثكنتين ضخمتين وبارزتين، وتسند الثكنتان مكاتب الشؤون الأهلية وبعض الإقامات الأقل ترفا كانت مساكن الموظفين الكولونياليين والكتبة. وتخترق الفيلاج كله والمجال الذبالي خاصة، الطريق الرئيسية والشارع الأساسي في نفس الوقت، من الشرق، مدينة "الرشيدية" نحو الغرب، مدن "وارزازات" وأكادير. وهي طريق أدارت المجال الغريسي كله دورة ذات 180 درجة، من العمودية، والتي أبقى لها المشروع الكولونيالي مسلكا قرويا فقط، من قرية "تاديغوست" إلى قرية "تلوين"، نحو الأفقية. وبذلك تغير توجه المجال كله من القبيلة التي كانت تخيط وترتق الجبل بالصحراء نحو التوطين وربط نقط الحواضر نحو الأطلسي.

ورغم كون هذا التحويل يبدو بسيطا وتقنيا عاديا فهو ذو أثر كبير في التقسيم الإقليمي والجهوي وإعداد التراب الصحراوي والواحي، الغريسي خاصة. بعدما كانت غريس محطة لقاء تافيلالت وسجلماسة بالجبل والسهول، ومن ثمة البعد الثقافي للمجال والذي بدأت تتضح معالمه منذ اقتسام الدولة العلوية الفتية مع الزاوية الدلائية للجهة، ونفوذ الدلاء على غريس وذلك في القرن السابع عشر حتى تأسيس حلف أيت يافلمان في نفس القرن. الحلف الذي جاء ليزكي الخصوصيات المجالية، السياسية والثقافية لغريس بعاصمتها كولميمة.

لقد زرع الفيلاج[1] في قلب غريس، مدينة تقف عندها الحافلة لتتزود بالوقود وليستريح المسافرون بعض الوقت لينطلقوا مرة أخرى نحو الغرب. هذا ما يوحي به الشارع - الطريق الأوحد الذي يخترق الفيلاج ليعلن عن عدم وجود أي جدوى ريعي في إقامة أية مستعمرة هنا. ومن ثمة القيمة العسكرية للموقع والوظيفة الإدارية والمراقبة بعد ذلك. ثم الريع الثقافي في نشر القيم الكولونيالية.

1- Jolé, M. *et al. Urbanisme et Idéologie, ibidem*. p. 37.

إن الطريق، بل والفيلاج كله دعوة لتجاوز حميمية المجال الخصوصي الذي كانت تحيى فيه القصور - الجمهوريات نحو المجال العمومي. وهو مجال تفصح عنه الحدائق الخضراء وأشجار الكاليبتوس الأجنبية والغريبة ضدا على النخيل والزيتون كشجر محلي في المزارع الخصوصية والحدائق السرية التقليدية.

الطريق إذا والحديقة العمومية والساحة والأشجار والأثل المصفوف خطيا على جنبي الشارع فوق الأرصفة، كلها شواهد على الرغبة الكولونيالية في استعراض المفاتن والحسنات والقوة. لقد كانت السلطات الأهلية كثيرا ما تستغل الساحة العمومية الكبرى لاستعراض قوتها وقوة خدامها القواد خصوصا. فكل كولميمة المستعمرة لازالت تتذكر فعل تنصيب آخر قائد محلي ببرنوسه الناصع وبلغته الصفراء الفاقعة والتي تعمد استعراضها بإخراجها من سيارة الجيب التي كانت تقله، وذلك حتى تتملى الساكنة المعدمة وتفتن بترف المتعاون وأبهته. وهي الساحة نفسها التي شهدت ذبيحة الحماية التي ضحى بها الأعيان المستسلمون إبان نفي الملك محمد الخامس، ذبيحة الأضحيات وانحناءة الخضوع التام.

البقع غير المتكافئة والثكنات والمكاتب إذا، هي أول ما يصفع الملاحظ ثم الطريق - الشارع كمجال للعمومية والعنف الرمزي والمادي في تغيير العمودية نحو الأفقية، بل وفي جرح الأرض وتدنيس مجال كان مخصصا للفرسان - يسمى المكان الذي أقيم فيه الفيلاج قديما، «تيزي نيمناين» أو ممر الفرسان.

ولعل إقامة المشروع الحضري على المكان ذاك عنف رمزي يضاف إلى أشكال العنف الأخرى التي لم يكن هدفها السوسيولوجي سوى سحق الوظيفة العضوية للقبيلة وإذلالها بفرض الإستقرار على بقعة محدودة بعيدا عن دينامية الترحال في المنتجعات والمراعي.[1] الأمر المفسر للمقاومة الشرسة للبدو أكثر من المستقرين، ليس كمقاتلين بالقوة فحسب، بل ونظرا لأن المشروع الكولونيالي سيمس في العمق مفهوم المجال البدوي وذلك بوضع حدود، ولأول مرة، للمراعي والمنتجعات بل ووقف الغزوات على أهل القصور.

1- Maarouf, N. *Lecture de l’Espace Oasien*. Sindbad, Paris, 1980. p.86.



المطعم، الكانتينا. تصوير محسن موساوي[1]

بعد النتوؤات البارزة في صورة مجال الفيلاج، يثير انتباه الملاحظ شيء آخر لا يقل قتامة وهو ما اصطلحنا على تسميته بمعمار العماء بالجدران الطويلة. وهي الجدران التي تحيط بالإقامات المرفهة من جهة وبالحدائق من جهة ثانية، إضافة إلى حيطان سور الثكنات والمكاتب والمستشفى، الأمر الذي يحتم على السابلة أن تقطع مسافات طويلة عبثا وهي مسافات غير مبررة.

من المعمار إذا يمكن أن نقرأ الإستراتيجية الكولونيالية المرتبكة، رغبة في التحديث بصنع وإنتاج مجالات الحداثة بطرق يمكن أن تخترقها السيارات والشاحنات والحافلات، ومن ثمة خلق وزرع المجال العمومي لأول مرة في تاريخ الواحة، إذ رغم تواجد مجالات عمومية بالنسبة لكل ساكنة قصر على حدة وأخرى بيقصرية مثل ساحات المسافرين بالنسبة للأولى والساقية والمسالك بالنسبة للثانية، إذ رغم كل ذلك، فكل قصر مثلا يعتبر العمومي خصوصيا بالنسبة له، بينما الواحة كلها تعتبر المسالك والقنوات خصوصية بالنسبة لها. وقد ضبطت الأعراف كل ذلك وزجرت خرق العادات بها.

1- كل الصور المرافقة للموضوع هي صور حديثة لكنها تحاكي النمط الكولونيالي الأصلي.

أما العمومي الذي أنشأته السلطات الأهلية فهو عمومي بالمعنى العام والقانوني إذ يمكن أن يستغل من طرف القصور كلها بل وخارج الواحة حتى. بل وأهم من كل ذلك سيكون تابعا للتصور الإستراتيجي لإعداد التراب، ليس هندسة فحسب بل وإجراءات قانونية مثل ضبط جواز «سيباصي» للإنتقال من واحة إلى أخرى أو من إقليم إلى آخر.

ورغم كل ما قيل عن العمومية تلك، فهي عمومية جد مرتبكة ومترددة تفضحها سياسة الجدران والثكنات كحواجز مادية واضحة، وكذلك سياسة الإقصاء والتهميش بإبعاد الفيلات المترفة عن الأنديجين. بل وبمنع القصوريين من ارتياد الفيلاج بدون مبرر بل وحتى منع اللباس العصري الأوروبي لغير المتمدرس أو من ليس من المتعاونين.

هذا تقرير ما يمكن أن نلاحظه أو أن نقرأه من المجال الكولونيالي في خطوطه العامة، أمافي تفاصيله، فإن أول مايستشعره الأجنبي، التهيئة الجيدة لشوارع الفيلاج حيث اتساعها واختراقها للمساكن والمرافق. وترجع إمكانية الهندسة الخطية تلك إلى خلق الفيلاج من فراغ.

أما ثاني ملاحظة فهي جمالية الحي الإداري، حيث بنيت مكاتب الشؤون الأهلية والمحكمة داخل حديقة جميلة وظليلة يبدو أنها كانت مزرعة خصوصية قبل الاستعمار، إذ النخيل العملاق والزيتون العتيق يفضحان المجال الذي أريد له أن يتخذ طابع العمومية باستيراد الطراز الأندلسي ذي الأروقة والسراديب والأرشفة والأقواس والإرتفاع عن سطح الأرض. وبني كل ذلك بحيطان عريضة وأسقف عالية. ولعل الذي تحكم في كل ذلك بعدان، البعد المناخي قبل كل شيء حيث الرغبة الشديدة في تلطيف حرارة الصيف اللاهبة وتدفئة أيام الشتاء القارسة - سيدخل الكولونياليون المدفئات الحطبية إلى المكاتب وهو أمر غريب عن الواحة - ثم البعد الجمالي الذي يعتبر أيضا ضروريا بالنسبة لضباط تشبعوا بالثقافة والذوق الأدبيين الفرنسيين.

وقد اتخذت الجمالية تلك بساطة وتقشفا ظاهرين مع عدم الدقة في التفاصيل، الأمر الذي أعطى للمجال كله بساطة ودفئا استمدهما من «الجمالية» المحلية من جهة ونظام الهندسة الخطية، العسكرية خصوصا، والمنظورية المستوردة كضرورة من ضرورات البيروقراطية من جهة ثانية.

ولعل جمالية الأديرة غير غائبة في كل هذا، خصوصا في المدرسة والمستشفى والكنيسة، حيث الفضاءات غير المسقفة والغرف الداخلية الموحية بالسكينة والهدوء والرهبة أحيانا.



إقامة ضابط الشؤون الأهلية (كومندار) وتظهر في الخلف حديقة الإقامة. تصوير محسن موساوي

أما الإقامات المترفة، فهي شيدت على علو متر من الأرض أو يزيد ارتفاعا وترفعا واعتمدت الغرف الواسعة والأسقف العالية والنوافذ الواسعة المبررة بأفق انتظارها الجميل، والتي لم تعط شيئا عندما قلدت في المنازل المكعبات الذبالية غير زمهرير الشتاء ولفح الصيف ورياح الخريف والربيع.

لقد اهتم في هذه المساكن المترفة بإقامة مرافق مساعدة من مطابخ وحمامات تأتيها المياه من خزانات تملؤها السواعد ليل نهار، وهي مرافق لا عهد للساكنة بها. كما اهتم أيضا بمساكن الدواب والدواجن من أجل تنويع الغذاء لحما وخضراوات خوفا من أمراض وأوبئة الصحراء حيث عاث الطاعون فسادا وحصد كثيرا من الأرواح في الحقبة الكولونيالية بغريس.

ويسبح الكل وسط النخيل والزيتون وأشجار الفاكهة التي يرويها صبيب ساقية جيد تخترق مياهها الحدائق ليل نهار صيفا وشتاءا. الأمر الذي يضفي على الفضاء كله إحساسا رومانسيا بالسعادة والراحة البدنية والروحية.

إنه مناخ محلي جد ملطف إذا ما قورن بالصحراء التي لا تكاد تبعد عن الإقامات المترفة تلك سوى بضع كبلومترات.

ذلك هو الفيلاج، وتلك هي التهيئة الكولونيالية والتي لازال معظمها قائما يشهد على التحول الذي طرأ على القبيلة بزرع التوطين وعلى اللاتغير الذي ساد الواحة منذ رحيل المستعمر.

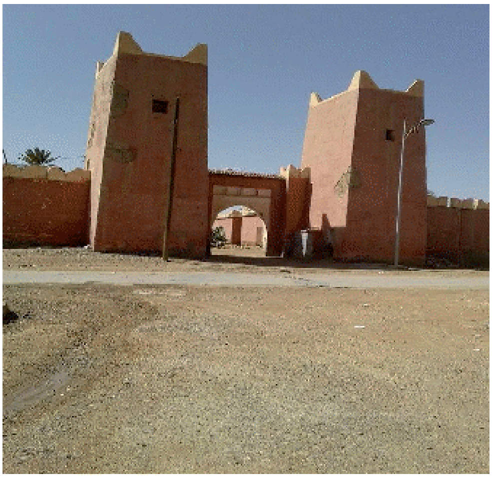
فما هي المعايير التي تحكمت في هذه التهيئة؟ وحول أي شيء تمحور تنظيم المجال الكولونيالي ؟ هل حول المجال الاقتصادي؟ أم الاجتماعي؟ أم السياسي؟ أم الديني؟ وماهي البياضات المجالية إن صح التعبير؟

III - عوامل ومعايير زرع الفيلاج وتهيئته

1 - عامل المراقبة:

أ - المراقبة العسكرية

لقد تأسس الفيلاج الكولميمي مباشرة إثر الملحمتين بوكافر (1933) وبادو (1934). وإذا كان فيلاج تنغير وضع أساسا أولا لوضع خطط حرب بوكافر وثانيا لتنفيذ البنود المبرمة مع «عسو أبسلام»، ثم وضع السياسة العامة لتهدئة المجال العطاوي، فإن نفس الشيء كان وراء زرع فيلاج كولميمة كموقع عسكري لمراقبة أيت يافلمان وأيت عطا على حد سواء. أيت مرغاد خاصة كرأس حربة الحلف اليافلماني. هذا بصفة العموم القبلي أما بالنسبة للمستقرين فتنقسم القصور الغريسية إلى كونفدراليتين صغيرتين: «تاركا أوفلا» و«واقا» وبينهما قصر كبير واستراتيجي، «إكلميمن» والذي ستسمى باسمه كولميمة، ولم يكن أمر بناء الفيلاج اعتباطا فهو يدخل ضمن سياسة الأمر الواقع التي انتهجها المستعمر. حيث تزكية سيادة قصر كولميمة الذي يأوي المنتصرين البدو الذين نزحوا من الجبل إلى الواحة في نهاية القرن التاسع عشر. ويعتبر أمر إقامة الفيلاج بين الكونفدراليتين الكبيرتين والصغيرتين خطة استراتيجية لفرض المرور بالفيلاج.



ثكنة بيرو عراب

تصوير محسن موساوي

لقد فكروا في الإقامة بأعلى الواحة عند مصب العين لكن كبير كونفدرالية تاركا أوفلا نصح باستيطان صرة غريس عند تيزي نيمناين وهي أرض بور كونفدراليته، كما تروي الرواية الشفوية ذلك. وربما سطرج في ذلك إلى إبعادهم عن المصب من جهة وعن قصوره من جهة ثانية. بكل ما سبق اتخذ الفيلاج، و لا زال يتخذ طابعا عسكريا واضحا.

ب - المراقبة الإدارية

إن إقامة مكاتب الشؤون الأهلية بالفيلاج، وهو في صرة الواحة، تقريب للإدارة الكولونيالية من الأنديجين دون إلصاقهم بها. وهو نوع من المراقبة عن بعد قريب، كما تعتبر المحكمة داخل المكاتب تلك أهم مرفق إداري شغل الساكنة بشكل ملفت. و من ثمة البعد القانوني للفيلاج[1].



الممر الرئيس إلى البيرو، مكتب الشؤون الأهلية. تصوير محسن موساوي

ج - المراقبة الرمزية

إن معمار العماء بالجدران الذي تحدثنا عنه آنفا ومنع الناس من ارتياد الفيلاج.

1- Coquery-Victrovitch, C. Villes Coloniales et Histoire de l'Afrique. 1988. In *Villes et Civilisation Urbaine. XVIII°-XX° siècles*. Sous la direction de Marcel Roncayolo et Thierry Paquot. Larousse. 1992.p. 655.

كما أن إقامة المجال العمومي والإعتناء به (الحدائق والشارع والساحات والأشجار والتزيين و المدرسة...) دون ذكر السجن والكنيسة والبيعة وتغييب المسجد[1]. كل ذلك كفيل بإعطاء الفيلاج صبغة "الرومية" والإستعلاء. والدنس من جهة قراءة المحليين التفاتا مثلا للماخور والحان والمقهى.



الكنيسة. تصوير محسن موساوي

2 - عامل التراب والماء

تروي الرواية الشفوية - كما أسلف ذكر ذلك - كون الفيلاج كان سيقام على النبع لولا الإستشارة المحلية التي أفتت المكان الذي أقيم عليه فعليا. وذلك لاعتبارات أهمها كون استغلال أرض بورية يثير أقل المشاكل مع الساكنة من جهة، كما أنه يمكن انتزاعها منهم بأقل التكاليف رغم كون بعض المالكين أدخل السجن عنوة بسبب رفضه لنزع الأرض. كما أن هناك عامل حاسم إلى جانب التراب هو صبيب مياه الساقية، ومن ثمة إمكانية إقامة المساكن المترفة فوق الساقية نفسها.

1- *Ibid.* p. 644.

3 -عامل الطريق

يعتبر أمر توجيه التراب المغربي عامة نحو الأطلسي بعيدا عن القارية.[1] استراتيجية أساسية في إعداد التراب الكولونيالي برمته وفي شكل تصوره للمجال. وهو أمر غير هين لو نظر إلى القارية التي طبعت تاريخ المغرب كله كبنيات قبلية وكاستراتيجية مخزنية بل وكنظرة إلى العالم لازالت تبعاتها مستمرة لحد الآن.

إن تغيير النظرة هذه إلى العالم، كانت وراء رسم ونحت طريق «الشانطي» في قلب غريس.



الطريق المؤدي إلى الأطلسي. تصوير الفنان عدي زواني

4 - عامل السوق

إن تنظيم التجارة وتحديد الأثمان وتوفير السلع وترويجها وفرض الضريبة «الترتيب»، كلها وظائف اقتصادية عملت السلطات الكولونيالية على ضبطها. ولقد استفادت الساكنة من السلع لكنها فقرت بالترتيب ومنافسة المنتوجات المحلية.

5 - عامل المنظورية

لقد قال الجغرافي المصري الكبير جمال حمدان : «إن الفلاح ينتج الفن، لكنه لا

1- Dresch, J. Villes d’Afrique Occidentale. 1950. In *Villes et Civilisation Urbaine. Ibidem*. p. 610.

يفكر فيه». لقد جاء المشروع الكولونيالي ليلفت انتباه الفلاح الواحي إلى بعد الخطية والمنظورية والإتساق، وهي أمور كانت غائبة في الإدراك والثقافة المحليين. لقد كان لصدمة الذوق الجديد بالإرث الجمالي القديم أثر على الجمالية المحلية التي ستتشظى ويتضح ذلك بالخصوص على مستوى انفجار معمار القصر وبناء مكعبات بالإسمنت والحديد كتقليد للذوق الأجنبي، ذلك التقليد الذي تفضح فشله جموع النساء أمام الدور بعدما فقدن السطوح وكذلك الشيوخ فوق كراسي الحدائق بعدما خسروا باب القصر.



الحديقة العمومية. تصوير محسن موساوي

لقد عملت المعايير التي تحكمت في إقامة الفلاح على فرض نظام قاس ابتدأ بنزع السلطة السياسية للقبيلة[1] وانتهى بتفكيك مجتمع وإقامة آخر بجانبه أو عليه، مجتمع مركزي وآخر هامشي وبينهما إدارة محلية ممسوخة هي «القايد» و«أيت المجلس» وحراس غرباء و«امخازنية» و«شامبيط» و«المقدم» و«الجراي». وانتهى إعداد التراب كله إلى ترسيخ التقليد بدل زرع الحداثة.[2].

1- Kasriel, M. *Libres Femmes du Haut Atlas?*. L'HARMATTAN. Paris. 1989. p. 164.
2- Maarouf, N. *Lecture de l'Espace oasien*, *Ibidem*. p. 85

IV – تحول مجال السلطة

لقد حاول المشروع الكولونيالي أن يبقي على مؤسسات السلط المحلية التقليدية، «لجماعت» و«أمغار» خصوصا، إلى جانب سلطته الفعلية، لكن بعدما أفرغها من محتواها العرفي مصطبغا إياها بالعمالة[1] أساسا وبالتنفيذية والبطش ثانية وبالإجرائية والفعالية ثالثة، بل وبتوظيفها في خلخلة البنيات التقليدية نفسها. ومن ثمة الإزدواجية التي طبعت سلوك الأعوان - الأعيان الكولونياليين، إذ هم موظفون يحاولون التمظهر بالجدية والعمل للصالح العام من جهة، وهم عملاء كشرط لتوزيع النعم من جهة ثانية.[2] ولم تخل عملية اختيار القايد المحلي من مشاكل وصعوبات احتكم فيها أحيانا للإنتخاب بالترشيح والدعاية والتصويت السري كآليات حداثية لم تعهدها الذهنية المحلية، لكنها خضعت لها وببعض الحماس كما تروي الرواية الشفوية ذلك. كما أن الإختيار انطلق أيضا من الإختيار المخزني التقليدي، حيث اختير القواد الأوائل من أبناء قواد السلطان المولى الحسن، كما كان الأمر بالنسبة «لباسو أعلي» في تاديغوست و«ابن محمد العربي» في أسرير. إلا أن المواصفات الشخصية من الشجاعة والإقدام وروح المبادرة والكرم كانت المؤهلات الضرورية المشروطة والتي على أساسها يعين القايد وإن من أسرة موسرة غالبا، رغم تسجيل بعض الحالات المعاكسة. وقد حرص الفرنسيون على عدالة القايد في إدارته للشأن العام رغم غضوضهم الطرف عن تجاوزاته الشخصية على مستوى القساوة والعنف والرشوة مثلا.

إن الاستعمار، وإن كان هدفه خلق اضطراب شديد في الإنية عبر تفكيكها وخلق خلل في نظامها بالتجزيء والتقسيم فإنه عمل أيضا على التنشئة الجديدة والمراقبة والإدماج. تلك كانت وظائف القايد تحت غطاء نظرية العنف، ومن هنا نفهم اختصاصه بالأمن والجنايات والتنفيذ ومراقبة الجماعة والإمغارن والمقدمين. أما الضابط العسكري فكانت مهمته سياسية بالدرجة الأولى وإدارية بالدرجة الثانية وقضائية بالدرجة الثالثة،

1- لا يهم الكولونيالي المحلي، إن صح التعبير، من يكن الآخر، إذ لم نجد مثل البحث عن هذا. إن الذي كان يهمهم ليست الصور و إنما السلوكات، معرفتها من أجل تطويعها. أنظر أفاية نور الدين.- الإسلام في متخيل الغرب. مجلة فكر و نقد، عدد 5 يناير 1998، ص. 63.

2- العلمي الإدريسي رشيد.- الفلسفة السياسية ومسألة العنف. مجلة فكر ونقد، عدد 26 فبراير2000، ص. 64.

ومن هنا علاقته المباشرة بالقايد كمراقب مباشر للبيداغوجيا الكولونيالية، كيف تمرر وما يتبقى منها.

إن القايد الكولونيالي، موظف يتقاضى أجرته من عشر الترتيب، وهو تحت الإمرة المباشرة لضابط الشؤون الأهلية، وهو المسؤول عن غريس كلها كمنطقة تضم عدة واحات وقصور وهي جد متنوعة ومتوزعة من الناحية الإثنية، وتحت إمرته إمغارن يتكلف كل واحد منهم بعدة قصور، ويتقاضى كل أمغار نصف راتب القايد، أما المقدم فهو أمغار قصر واحد. وقد أبدع المستعمر موظفا جديدا غريبا عن البنيات التقليدية وهو «المعين» الذي يشغل تقريبا وظيفة كبير الجماعة. وللإمغارن أعوان ومساعدون يختارهم من تلقاء نفسه وهم الجرايون ومفرده «الجراي» الذي يشغل وظيفة التواصل والإعلام والإستعلام. لقد كانت شبكة معقدة تلقي بظلالها وبآذانها وأعينها على الساكنة ساهرة بذلك أساسا على الأمن العام والتنفيذ.

وحتى نلم بسلطة القايد كموظف كولونيالي يمكن أن يضيء كثيرا من المجالية الاستعمارية نفسها نحاول هنا وصف السيرة النموذجية له.

يعتبر السجل العدلي المتمثل في عذرية العلاقة مع أي شكل من أشكال المقاومة السياسية شرطا أوليا في تنصيب القايد، إلا أن شخصية ضباط الشؤون الأهلية هنا أساسية أيضا، مزاجه وثقافته بل وحتى منطقته ومسقط رأسه في فرنسا، آراؤه السياسية، هل كانت له علاقة بالمقاومة هناك (ضباط لهم أفراد في أسرهم كانوا أعضاء في المقاومة ضد النازية.)

يجب على القايد، أول مايجب عليه، أن يكون قويا بما فيه الكفاية حتى يستطيع التنفيذ، أما الغنى، بل وحتى الحكمة فيمكن أن يحصل عليهما فيما بعد، إنه إذا منفذ بالدرجة الأولى، أما صفاته الأخرى كمشرع أو حكم عادل فهي ليست ضرورية، حيث أسست مؤسسات أخرى تتكلف بذلك، ف «تعقيط» حاضرة وموجودة وخبرة «أيت المجلس» أيضا. بل وحتى بعده التواصلي ليس مطلوبا، فهناك من ينشر الخبر ويوزعه، فما عليه إلا المحافظة على الإستمرارية في الوضع والمتابعة. وللولاء دائما مقابله، وللوصول إلى كل ذلك لابد من زرع الأعين بل وخلق المؤامرات والدسائس. يجب على القايد أن يكون ديمقراطيا في الشكل وأن يبقى كولونياليا في المضمون.

إن القايد هو ذلك الشخص الضامن للأمن والمطمئن والمقنع بالفعالية والضبط والإكراه إن اقتضى الحال، والمنتج للإخلاص والتبعية ضدا على السيبا وقطاع الطرق. إنه الضامن للحق البيولوجي والمستفيد من جميع الحقوق الأخرى وفق التعاقد الهوبزي. وكل ذلك بحد أدنى من الكاريزمية.[1]

هكذا لم تعمل المجالية الكولونيالية على تأبيد المجالية التقليدية فحسب، بل ومكنتها من الوسائل الكفيلة بالتنفيذ. إن القايد يستطيع أن يمرر الأمور بسرعة، كما أنه باستطاعته أن يصدر الأحكام النهائية وغير القابلة للإستئناف. كما أنه يفكر بالنيابة، وحتى وإن كان غير عادل فهو منتج للمعيارية ويستطيع أن يضع الأمور في محلها الملائم وإن وضعت في وضع غير ملائم فالأهم هو النظام ولو بالتنضيد. إنه الوهم بالإعتقاد بامتلاك المجال والإنتماء إليه. لازال هناك من يملك حنينا إلى المرحلة الكولونيالية : «إن أحكامهم كانت سريعة التنفيذ وغير قابلة للنقض». إن القايد هو المشخص الحقيقي للعصرنة والنظام عبر تقسيم الشغل وتنظيم الوقت وتوزيع المهام. لقد كان هناك شعور مبهم بأن هناك شيء ما يحدث، لكن بقلق شديد لأنه وببساطة كان مستوى التوافق صفرا.

إن التوطين كسياسة استراتيجية لم تكن استبدالا بسيطا لمجالية بأخرى، بل إحداث رجة كبيرة وعنيفة على مستوى العلائق الاجتماعية التي كانت مبنية على القرابة والعرف والتي ستبنى منذ المجال التوطيني على معايير أخرى جديدة مثل الزبونية والمصلحة والأجرة. ورغم كون السلطات الاستعمارية عملت على الإبقاء على العرف فقد حصرته في إطاره القضائي الزجري والردعي مضيفة إليه طابع الإرجاع.

لقد عمل المشروع الكولونيالي، إلى جانب التهيئ الترابي من إصلاح للمسالك وبناء الطرق. على تهيئ من نوع آخر منطلق من بيداغوجية سياسية مبنية على زرع المنافسة وخلق الحاجة إلى القول والكلام والتقرب والزلفى. وبذلك زرع ونشر العلامات المغرية من لباس ومركوب وغير ذلك. وكذلك زرع الخوف بالقمع بالحبس والنفي والتشويش الإيديولوجي. الأمر الذي أفرغ مشروعه من المعنى والجدوى مادام هناك مس عميق

1- Berque J. *Les Arabes d’hier à demain*, Seuil, 1960. p. 223.

للذات والهوية.[1] إن التاريخانية يمكن أن تكون مفيدة هنا في نزع الشحنة الإنفعالية والوجدانية والقداسة عن الحدث، فما حدث قد حدث. لكن دون السقوط في وجدانية تبرير غير مبرر.

يغري المشروع الاستعماري التفسير بالسلطة المطلقة، فهل كان فعلا كذلك؟ هل كان مراقبة جسدية وعسفا بحثا وهو الذي ما فتيء يرفع شعارات الحضارة والأمن بل والإزدهار؟ ألم يشغل الاستعمار إيديولوجية ما؟ هل مكنته قوته من الإستغناء عن كل دعوة؟

لقد مر وأن كررنا دعوة التحضير التي حاول أن يبرر الاستعمار بها مشروعه، إلا أنه في مجتمع جد تراتبي وجد طبيعي مثل واحتنا، فإن الإيديولوجيا الكولونيالية لم تكن سوى المحافظة على الشخصية المحلية والعمل الدائم على تمييزها عن الشخصية الحضرية. بل وكانت أعين الإستخبار الكولونيالي تحصي كل علاقة مع أهل المدن الداخلية.[2] لقد حاول الاستعمار هنا، أن يدمج الأمازيغ معتبرا إياهم قابلين للدمج مثلهم مثل اليهود.

لقد فهم المشروع الكولونيالي المصادر الأساسية للحكم في الواحة، وعمل على استغلالها مستفيدا من العادات والأعراف كمصدر طبيعي - ثقافي «للهيمنة المستساغة». وقد عمل وفق ذلك على خلق مؤسسات الإستشارة، القضائية منها خصوصا. لكنه ركز على الكاريزم الذي استثمره إلى أقصى الحدود في شخص القائد.

1- Khatibi A. *Le roman maghrébin*. SMER. 1979. P. 84.
2- Mauss M. *Essai de Sociologie*, Ed. de Minuit, 1969.pp. 100-114.

خاتمة

إن القول بحدوث تحولات كمية وكيفية هامة أثناء السياسة الأهلية بواحة غريس، لايضيف شيئا ويبدو تحصيل حاصل وتقرير بداهة. ويبقى الأساسي بالنسبة لنا رصد تفاصيل التحولات تلك سواء على مستوى توصيف التحول المجالي- التوطيني أو ما أسميناه بزرع الفيلاج، أم على مستوى أعلى حاولنا رصده في السلطة وهرميتها.

لقد كانت نتائج المشروع الكولونيالي جد مخيبة للآمال بلغة التقويم، رغم ما قد يبدو من حداثية مظهرية، حيث حدوث التشوه المعماري واللاملاءمة على مستوى تنظيم المجال، وانبناء ازمة الهوية بين باطن تقليدي وشكل حداثي وسيادة فقدان المبادرة التاريخية.

إن تجاوز الإديولوجيا القبلية نحو الوطنية لم يكتمل وتم بشكل مشوه وممسوخ، كما أن تركيز سلطة القوة والعنف وسياسة الدسائس والإبتزاز أسس لتربية سياسية لازلنا نعاني من تبعاتها.

لقد خلقت الإرادة الكولونيالية مجتمعا فوق المجتمع وكرست تراتبية منافقة تبدي تكافؤ الفرص وتضمر تأبيد الفائدة للمستفيد والبؤس للآخرين. وتم تمثل كل ذلك بخلق أسوء الصور عن الذات وعملقة الآخر. كثيرا ما يشعر الغريسي بأنه يقيم بآخر الدنيا وأن أية هجرة عن هذا القرار فوز وانفلات. رغم ماقد يبديه من عزة وبعض استصغار الآخر الذي لايكون غالبا سوى الجار القريب.

ورغم كل ماسبق، فإن النمذجة جد مستعصية أمام ميدان مزيج وبصيغة الجمع، فلكل إثنية تمثلها للتحول، بل وادعى البعض كونه لم يكن مستعمرا البتتة، فاستعمار السيد تحرير للعبد. كما أن التحولات تمت بشكل مختلف وتابع للرهانات.

الفصل الثالث

التحولات الاجتماعية: الأسرة والمعاش والقضاء والمدرسة

نحاول في هذا الفصل أن نفحص التحولات التي حاول المشروع الكولونيالي أن يحدثها على مستوى الحياة اليومية والفعلية للغريسيين، سواء على مستوى الأسرة والمعاش أم على مستوى القضاء والمدرسة.

مع تقديم لذلك بتحليل مضمون وثيقة كولونيالية محورية رصدا للتمثلات التي كانت تقود المشروع برمته.

I - تحليل مضمون دراسة كولونيالية:

- لماذا هذا المتن؟

لم يكن اختيارنا لهذا المتن عشوائيا، فهو يستجيب لهدفين: الأول وهو القابلية لاختبار فروض البحث والثاني إمكانية فحص التمثل الكولونيالي لفعله وللتحولات المراد إنجازها من جهة والكيفية التي تم بها الإنجاز من جهة ثانية.

نملك الآن ما يكفي لمقاربة متن كولونيالي محلي انطلاقا أولا من سياق المعرفة الكولونيالية ومن فعل الإحتلال ثانية، واستئناسا بالوثائق التمهيدية الإستكشافية ثالثة.

ومع كل ذلك فنحن جد واعون بضرورة الإحتياط والحذر الشديدين الذين يجب التسلح بهما تحرزا من التداخل والإسقاط.

ولنا أن نشير منذ الآن إلى الإختلافات الجوهرية والمنهجية التي يجب الوعي بهما بصدد الإنتقال من معالجة الشفهي إلى معالجة المكتوب. فإذا كان الشفهي يتسم عادة بعدم المباشرة والتأويل بالتموقع وتوريط الذات وكذلك الإنحصار في مجال ثقافي محدد مسبقا، وإذا كان التكرار سمة غالبة عليه ومؤشرا منهجيا أساسيا في القراءة وتحليل المحتوى، وإذا كان الإستدلال الغالب على الشفاهية الرواية، مع حصر المرجعية في الدين أو العرف في حالتنا.

إذا كان كل ذلك بالنسبة للمتن الشفوي فإن النص المكتوب يملك منطقا جد مغاير، فهو يعتمد التركيز والتقريرية والإبتعاد عن التكرار وكذلك الإعتماد على الذاكرة الموضوعية والكلية والشمولية والتخصص، أما مرجعيته، في حالتنا، فحداثية وحضارية

وعقلانية، أما الإستدلالات فإنها تحاول الإقناع العقلي.[1] كل ذلك يجعلنا أمام منطقين يفرضان اختلاف المقاربة، فإذا كان التكرار مثلا جد معبر في الشفهي فإن المساحة غير معبرة مثلا في الكتابي، إذ أن كلمة معبرة ومقنعة يمكن أن تساوي في قيمتها الإستدلالية صفحات ومن ثمة القيمة النسبية للعد،[2]

كما أن إيراد متن لمحضر أو عقد رسمي قد يغني عن كل استدلال. من كل ماسبق تأتي ضرورة الحيطة في الإشتغال على متنين مختلفين بنفس الآليات والمنهجية إن لم نقل عدم إمكانية ذلك.

إن المتن الذي نحن بصدده، عمل شبه رسمي جمع بين الخصوصي والرسمي حيث خلط بين الإنشاء الأدبي والسرد التاريخي المونوغرافي، كما أدرج داخل العمل وثائق رسمية تتكون من محاضر وتقارير وعقود وأوفاق واتفاقات قبلية وكذلك رسائل رسمية وتنفيذ تعليمات وأجرأة اقتراحات.

وقد كان الهدف الواضح والدقيق من الدراسة كلها المراقبة. وبهذا كله اتخذ العمل صبغة التعقيد واللاتجانس المستوجب للوصف والتلخيص رغم كون المقاطع كانت جد متفاوتة الأهمية ولعل أهمها : بعض العقود والأوفاق، التوطين، الحدود، الماء، سيرة القائد وخصوصا تنظيم الجماعة.

لم نعتمد التصنيف الوثائقي، عام/ خاص نظرا لعموميته وعدم دقته فيما يخص حالتنا، كما أهملنا التصنيف، مصدر/وثيقة نظرا لحمولته التاريخية. وفضلنا التصنيف، رسمي/خصوصي تبعا للبعد الإجرائي والإلزامي للفعل الذي أرادت السلطات الكولونيالية إحداثه بتحميله طابع الرسمية.

1- Claval, P. *Espace et Pouvoir*. Paris, PUF, p. 31. 1978.

2- «إن المبالغة في الوصف و التحليل الكمي كثيرا ما يصرفنا عن التفكير فيما هو أساسي و هام «يرى غاستون باشلار، أورده أوزي أحمد.- تحليل المضمون ومنهجية البحث. الشركة المغربية للطباعة والنشر. الرباط. 1993. ص. 29. «إذ الإسراف في الإهتمام بالكم من شأنه كما يقول هولستي أن يعطينا: «دراسات على قدر كبير من الدقة، وعلى درجة قليلة من الأهمية..». نفس الصفحة.

أما الوحدات الدلالية التي تشكل منها المتن فقد اتخذت كعينة جد ممثلة نظرا لتغطيتها للمؤشرات والمفاهيم التي وضعناها في منهجية البحث، هذا من جهة أما من جهة ثانية فالتجانس النسبي للميدان لم يستدع العينات المركبة.

أما الفروض فهي لا زالت تابعة للخط الناظم للعمل كله وذلك عبر أسئلة محورية من مثل: هل التحويل كان حداثيا عقلانيا تنمويا ؟ أم أبقى الحال على ما هو عليه ولم يعمل سوى على تدبير الكائن والممكن وترسيخ التقليد وربما الإفقار ؟

إن الوحدات الدلالية المعتمدة، هي وحدات السياق والموضوع: الفصل والفقرة والجملة بل والكلمة متى كانت معبرة، ولم نعر التكرار كثير قيمة (وحدة مقياس المساحة، الصفحة مثلا) نظرا لعدم أهميته إذ أسهب الباحث مثلا في التاريخ القديم وهو بدون قيمة تذكر بالنسبة للفعل الكولونيالي. ورغم ذلك لم نغفل التكرار كلية متى كانت له قيمة الدلالة السوسيولوجية.

أما فيما يخص التفيئ التحليلي، فئات التحليل، فقد ربطناها منهجيا بالمؤشرات والمفاهيم والفروض، وذلك وفق مجالات أولية ثلاث اعتبرناها معبرة وهي:

- المجال والسلطة بتفرعاتها؛
- والمعاش والمورفولوجيا بتفرعاتها؛
- والقيم والتوجهات بتفرعاتها.

وقد أعطت القراءات الأولية الفئات التحليلية التالية:

أ- المجال والسلطة:

- سيرة القائد؛
- تنظيم الجماعة؛
- العقود والأوفاق؛
- التوطين والحدود؛

- تحديد الملكية، إحصاؤها، تقويمها؛

- الموقف من العرف / الموقف من الشرع ؛

ب- المورفولوجيا والمعاش:

- اللف؛

- القبيلة؛

- الفخذة؛

- الأسرة؛

- تفكيك / توحيد؛

- المستقر والبدوي؛

- الماء؛

- الزراعة؛

- الإنتجاع؛

- أفق التنمية أم أفق الإفقار؟؛

- المعاملات: بيع، شراء، قسمة تركة؛

ج- القيم والتوجهات:

- الحداثة أم ترسيخ التقليد؟؛

- العقلانية أم السحر؟؛

- المبادرة والتفتح أم فرض الطاعة؟؛

- العقلانية أم الذكاء العملي والدهاء؟؛

- قوة التأثير أم الإقناع ؟؛

وقد أملت القراءة المنهجية ضرورة المقارنة مع نتائج الفئات التحليلية للمتن الشفوي، وذلك كله تحت وعي كون كل نص ليس سوى مناسبة للتموقف، كما أن المنهجية، تحليل المضمون هنا، ليست أداة جاهزة للإستعمال.[1]

واستهدافا للأجرأة اشتغلنا تحت وعي أن يكون عملنا استجابة لأفعال قسمناها إلى قسمين:

- أفعال فهم: وصف وتلخيص وتفكيك (عد، تبويب، تفيئ، تصنيف) وتحليل.

- أفعال تأويل : تفسير وتبرير ومقارنة واستنتاج واستدلال.

وذلك كله وفق ثنائة المضمون الظاهر والمضمون الباطن.

وقد بدأنا تحليلنا المضموني كله بالأسئلة: من ؟ ماذا ؟ كيف ؟ لمن ؟ لأي هدف؟ أي نتيجة؟[2]

1 - قراءة وتأويل الوثيقة:

أ - عناصر الخطاب:

- من هو صاحب الدراسة - الملف؟ من الذي يتكلم عبره؟

هو ضابط للشؤون الأهلية الممثل لسلطة المراقبة، تلك السلطة المتواترة في النص كله بشكل كبير وجد موح.

- ماذا أراد أن يوصل؟

معلومات وملاحظات وتقارير عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للجماعات والأفراد.

- كيف أوصله؟

1- أوزي أحمد.- تحليل المضمون...: «إنه على تعبير لوي بورشي ليس prêt à porter». نفس المرجع. ص. 10.

2- أنظر نفس المرجع.

بإنشاءات وتقارير واقتراحات وبحوث حتى، مدرجا مراسلات تقترح إصلاحات أوتغييرات أو تعديلات وأخرى على شكل تعليمات وأوامر بتنفيذ، ومدرجا أيضا محاضر أوفاق وأجوبة رأي.

- لمن يوجه الخطاب؟

لرؤسائه في السلم الإداري - العسكري - الكولونيالي

- لأي هدف ؟

تطبيق التصور الكولونيالي للتطور.

ب - وحدات الدلالة التيماتية:

لقد أفصح المتن، دون عناء كبير عن اهتمام شديد بما هو سياسي بالدرجة الأولى، فحتى عندما نجد أهم بحث في المتن كله تمحور حول الانتجاع، ورغم إدراجه في فصل الاقتصاد وإعطائه صبغة الإهتمام بالمعاش والتنمية، فقد برر الإشتغال عليه بأهداف سياسية بالدرجة الأولى، وذلك لخطورة النزاعات حول الكلأ في منطقة شبه صحراوية.

بعد الإهتمام بمسألة النزاعات حول المنتجعات - وهي مسألة مستعجلة- تأتي قضية تشغيل وتفعيل آليات التوطين (رسم الحدود، تحديد الملكية، مركزة القضاء...) وفي الدرجة الثانية وبعدها، ومعها مباشرة، تمركز الإهتمام حول زرع وتفعيل مجال السلطة (سيرة القائد، تنظيم الجماعة، العقود...) وبعدها تباعا : المعاش والمورفولوجيا وتفرعاتها (الماء، ملكية الأرض الزراعية، المعاملات...) ثم القيم والتوجهات، والتي بدا فيها الإهتمام بالتطور واضحا بدل الحداثة، لا يتكلم عن الحداثة إلا مرة واحدة في الدراسة - الملف كله، وذلك في سياق إعطاء معلومات عن أشخاص مؤثرين وفاعلين حيث أشار إلى أحدهم بكونه يحمل قابلية للحداثة (ص 122)، على عكس ذلك نجد كلمة التطور حسنة التواتر. كما أنه اهتم بقيم طبيعية أو شبه طبيعية بدل قيم الحداثة نفسها وبذلك شغله الذكاء والدهاء بدل العقلانية، والطاعة بدل التفتح والغنى بدل التنمية.

ج - الوحدات الدلالية:

التوطين:

- رسم الحدود؛

- إحصاء وتقويم ملكية الأرض المزروعة؛

- الماء؛

- تحديد الملكية؛

- مركزة القضاء؛

يتبين طغيان دلالة رسم الحدود.

المعاش :

- الوادي؛

- بؤر المياه؛

- قرار بصدد عين؛

- الطرق والمسالك؛

- الزراعة؛

- الترجال؛

- الجفاف؛

وهتا يتبين طغيان دلالة الجفاف.

الإثنوغرافيا :

- الخصومات واللفوف؛

- الزي والوشم ؛

- القيمة القتالية؛

- الحياة الدينية والمزارات؛

أما هنا فيتضح طغيان دلالة الخصومات واللفوف.

التاريخ:

- ماقبل الإستسلام؛

- ما بعد الإستسلام؛

- السلطان الأسود؛

- أيت عطا؛

- أيت يافلمان؛

- الإحتلال؛

- زايد أحماد؛

طغيان دلالة التاريخ السياسي، مع بعض الموضوعية.

الوضع السياسي:

- آخر نقطة تهدئة؛

- زايد أحماد؛

- علم نفس اجتماعي للأجناس والأفراد؛

- سيرة القايد أسكنتي؛

- سيرة بعض «إمغارن»؛

- تنظيم الجماعة : الرئاسة والكتابة وتنظيم الآجال؛

- تطبيق الإصلاح الجماعي بمرونة مع مراعاة الأوضاع المحلية المتأخرة والفقيرة؛

طغيان دلالتي سيرة القايد وتنظيم الجماعة.

بعض معايير التميز:

- العلاقات مع السلطات؛
- الذكاء؛
- الدهاء؛
- التأثير والفعل؛
- الغنى؛

طغيان دلالتي الطاعة والقدرة على التأثير والفعل.

نتائج

لقد غلب ما هو سياسي بمعناه التدبيري - الضبطي الضيق على التمثل والفعل الكولونياليين، على عكس غلبة ما هو ماهوي على التمثل المحلي (الجهاد، زرع الفيلاج...) ومن ثمة كان التوجه بالنسبة للفعل الكولونيالي نحو الحاضر والمستقبل في حين بقي التوجه بالنسبة للتمثل المحلي ماضويا.

لقد كان الاستعمار فعل قوة ومبادرة بالنسبة للمستعمِر، أما بالنسبة للمستعمَر فما كان عليه سوى الفعل على المحافظة على ما يمكن المحافظة عليه.

II- الاستعمار وتحول البنية المورفولوجية الغريسية

1 - المورفولوجيا التقليدية، الإنتظامات الموسعة والإنتظامات الضيقة

تفصح الأعراف المحلية المدونة، «تعقدين»، عن صنفين من الإنتظام القرابي، الإنتظام الموسع والإنتظام الضيق. وإذا كان البدو ينتظمون بشكل أكثر وضوحا في الصنف الأول، والذي يشمل: «اللف»[1]، و«الأقبيل»[2] و«تقبيلت»[3]، فإن انتظامات المقيمين تكاد تنحصر في: «الإخس» أو «العظم» و«الأخام» أو «العائلة» و«الأملسي» أو الأسرة النووية.

ولا يجب أن يوحي الأمر بتبسيطية ما لأن الواقع أعقد غالبا مما يظن، إذ التقسيم الإنتظامي وإن كان يوحي بعصبية أكثر لدى البدو، لا يجب أن يخفي استقلالية وفردانية بارزتين عند هؤلاء، ومن ثمة انتظامهم في الشكل النووي للقرابة وما يترتب عن ذلك على المستوى النفسي الاجتماعي من سلوكات غالبا ما تصدم الملاحظ غير الحذر أو المنطلق من المستبق، بدو/حضر. ويرجع الأمر في الإستقلالية النسبية للشخصية البدوية إلى أمور منها طبيعتهم الحربية القتالية واقتصاد الغزو وكذلك شكل السكن، إذ الخيمة لا يمكن أن تأوي انتظاما ممتدا مثل العائلة. في حين، أن طبيعة السكن لدى المقيمين، دور ذات طوابق تأوي الماشية وتقتصد المجال وتحمي من الهجير، وكذلك اقتصاد السواعد، كل ذلك عمل على انتشار العائلة الممتدة لدى المقيمين.

وسواء كنا في مورفولوجيا البدو أو مورفولوجيا المقيمين، يبقى الإخس هو الإنتظام الأكثر تمفصلا وفعالية وحيوية، حيث ظرفية الولاءات العليا، اللف والأقبيل وتقبيلت وضيق الولاء النووي. إذ لا يلتجأ مثلا إلى اللف إلا في ظروف الحرب ولا تستنفر عصبية «أيت ربعين» إلا في جريمة واحدة هي القتل. أما الإخس، «أيت عشرة» فهي الوحدة المورفولوجية التي تتمركز حولها الأعراف، وذلك كمقسمين «إمكلا» أو كضامنين «إمورن» لتنفيذ الأحكام أو كحماة «إمساين».

1- اللف: حلف سياسي- حربي-قبلي شبه طبيعي تارة لصد حلف آخر كما كان الأمر بالنسبة لحلف أيت عطا الذي تأسس في القرن 16 م لصد حلف بني معقل... أو سياسي كما كان الأمر بالنسبة لحلف أيت يافلمان، وهو حلف تأسس بإيعاز من السلطة المركزية في الفرن 17م لصد أيت عطا. راجع بحثنا لنيل دبلوم الدراسات العليا: **الواحات المغربية قبل الإستعمار**، غريس نموذجا. 1996 كاية الآداب، الرباط.

2- الأقبيل: دال شبه معياري قد يساوي القبيلة أو يتضمنها.

3- تقبيلت: الفبيلة، وتضم مجموعة من إخسان، القسمات أو الفرقات.

وبكل ذلك لا يستقل ولا يتفرد الإنسان هنا كشخص قانوني وإنما كسلوك، عند المستقرين، فحسب وبالأخص عند الأغراب وبعض الحرفيين والطلبة وقطاع الطرق.

ولعل التفسير المقنع لمحورية انتظام الإخس، فعاليته وسرعة تنفيذيته واستجابة استدعائه في سياق لامركزية السلطة، حيث يؤسس الأمن على المسؤولية الجماعية لتعذر المسؤولية الفردية. إذ يمكن وبتنفيذية فائقة لمجرم مثلا أن يخرج من قبيلة إلى أخرى حتى ينجو من الردع أو الإرجاع. ولعل في تحمل أية عشراه مسؤولية فعله وقاية مسبقة من الأذى، لأنهم ملزمون بالأداء عنه بحضوره أو غيابه. وهي طريقة ذكية يحمي بها المجتمع نفسه في غياب درك وشرطة مركزيين.

ورغم كون اللامركزية السياسية كانت وراء كثير من سلوك الإنتظام الإجتماعي لمجتمع الواحة قبل الإستعمار، الأمر الذي ستوضحه المركزية الاستعمارية حيث تم التخلي عن الإدارة والقضاء العرفيين عندما تمكنت السياسة الأهلية من «التهدئة»، وذلك بخلق مكاتب الشؤون الأهلية تفض النزاعات وتقضي في القضايا. ورغم ذلك، فإن الإنتقال من اللامركزية التقليدية إلى المركزية الحديثة لم يكن تاما، حيث راعت السياسة الأهلية الأعراف رغم انتفاء ما يستدعيها. وبقيت المحكمة العرفية تعتمد «أيت عشرة»، الأمر الذي يقوي محورية الإخس مرة أخرى، والأمر الذي يحث أيضا على البحث عن تفسير إضافي للمحورية تلك غير اللامركزية التنفيذية. وقد حصلنا على تفسير عميق تجلى في البعد الثقافي والذي هو القاع الذهني للقبيلة، إنه العار.

2 – التحول العرفي _ القضائي

ليست الأعراف قضاءا وسلطة فض النزاعات فحسب، بل هي تصور شامل ومتكامل وملائم للكون. إنها التعبير الحي عن الحياة اليومية وإنسية الجماعة، تلك الإنسية المنطلقة هنا في الواحة من مفهوم ثقافي مركزي هو العار، والذي ليس فحسب «ثقلا أو حملا معنويا يرمى به على شخص أو جماعة من الأشخاص ولا يمكن التخلص من ذلك الثقل أو الحمل إلا بالإستجابة للطلب المرافق للعار».[1] كما أنه ليس «لعنة

1- إيكلمان، ديل.- **الإسلام في المغرب**. ترجمة: أ عفيف محمد. توبقال.1999. ص.36.

مشروطة بعقوبات (أو انتقام) القوى الغيبية»[1] فحسب. بل هو أكثر من كل ذلك، إنه الشرف والحق والذمة والكرامة والعهد والكفالة والضمان والعرض والحرمة. ويتخذ المفهوم زخمه وقوته في إجرائيته وتجاوزه للرمزية المجردة، حيث يتم تداوله عبر القسم وتقديم الضمان حتى يتخذ صبغة الإلزام، بل وقد يتجاوز كل ذلك إلى الكينونة نفسها، إذ في غريس يحفر قبر لمن انكسر عاره.

لسنا هنا بصدد مناقشة مفهوم العار بقدر ما نحن بصدد ضبطه كقاع ثقافي للتعاقد القبلي ولانتظاماته الاجتماعية. إنه الضابط الرمزي في غياب ضابط سياسي مركزي.

وقد لاحظ إيكلمان وبذكاء «انتهاء استعمال العار الكبير منذ سيطرة الفرنسيين على المغرب حيث كان يستعمل في فترة ما قبل الحماية كوسيلة لإنهاء الخلافات والنزاعات بين القبائل والفرق القبلية والدواوير، وكان فيه الصلحاء يلعبون دور الوسطاء.»[2] إن تجاوز العار ذاك، والذي دقق في وصفه إيكلمان بالكبير، والذي يتفق مع نسبية تجاوز الإخس أثناء السياسة الأهلية في غريس، ذلك التجاوز الذي تحدثنا عنه آنفا، والذي يهمنا هنا بالأساس، إنه التحول الذي نحاول وضع الأصبع عليه.

لماذا لم تعد الواحة مع السياسة الأهلية ترمي العار ؟ ولماذا اكتفت بمستوياته الدنيا أو ما أسماه إيكلمان بالعارالصغير؟ لماذا تعطلت الإنتظامات الواسعة، اللف والقبيلة؟ وكيف بدأ التوجه نحو الأسرة النووية رغم مقاومة الإخس وبعض مكانة القبيلة لدى المنتجعين؟

تفصح محاضر الأحكام القضائية[3] في العهد الكولونيالي عن ارتباك السياسة الأهلية نحو كيفية التعامل مع الإخس خاصة. فإذا كان موقفها حاسما تجاه اللف والقبيلة حيث تم تحطيمهما دون هوادة، وذلك كأشكال مورفولوجية حيوية من خلال مركزية السلطة والقضاء والتوطين وضبط مهام ووظائف القايد كموظف مخزني يمثل السلطة

1- إيكلمان، ديل.- عن وستر مارك. نفس المرجع. نفس الصفحة.

2- إيكلمان، ديل.. نفس المرجع. نفس الصفحة.

3- من أرشيفات مكتب الشؤون الأهلية. كلميمة.

التنفيذية ويؤدي مهمة الأمن بالدرجة الأولى، ومن ثمة لاجدوى المسؤولية الجماعية. إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للإنتظامات تلك، فإن الإخس بقي حيويا في بعض وظائفه على الأقل، خصوصا الخبرة منها، حيث اعتبر أيت عشرة ركنا أساسيا في القضاء العرفي الكولونيالي، لكن ليس كضامنين للتنفيذ كما كان الأمر أثناء السيبا، حيث جندت السلطة الكولونيالية لهذه المهمة مؤسسة القايد وأعوانه، كما أنهم لم يعودوا، أيت عشرة، حماة بعدما تمت التهدئة ولم يعد هناك معنى لمؤسسة الحماية، «تايسا»،[1] بل كمقسمين وخبراء فحسب في قضايا القسمة والإرث وجل النزاعات التي تفصح كثرتها عن تحول عميق في البنية القرابية نحو الإستقلالية والمسؤولية الفردية وتكوين أسر نووية.

3 - تحول الشغل والمعاش

اعتمدت السياسة الأهلية في مشروعها «التحضيري» على آليتين متناقضتين وهما: «التهدئة» ومركزة السلطة والتوطين ومن ثمة فتح أوراش للشغل في التهييء وتسهيل التنقل والهجرة. كل ذلك من جهة، والإفقار وفرض السخر والإضطهاد من جهة ثانية. وكل ذلك ضمن أبوية وصية مستبدة.

ولئن كان المشروع الكولونيالي في الواحة خال من استراتيجية التعمير وما يتبعها من خلخلة البنية العقارية والملكية، كما وقع في أماكن أخرى،[2] فإنه رغم ذلك فرض حس التهيئة مجالات وفرصا للشغل لم تعهدها البنية التقليدية الاجتماعية والذهنية على حد سواء.

وحلت مفاهيم جديدة لم تكن واردة بالنسبة لانتظام المعاش التقليدي، ولعل أهم صبغة اتخذها الشغل وأولها كانت صبغة العنف والسخرة، «الكورفي»، وهي أشغال يقدمها كل بالغ، «حد الصايم» وكل دابة بالمجان وذلك تحت تهديد الحبس والضرب. ومن ثمة ارتباط الأشكال الجديدة لتنظيم الشغل بالإضطهاد والدونية. بعد السخرة تأتي

1- هي مؤسسة محورية في عهد السيبا، حيث كان يحمي بها البدو المستقرين مثلا، أو يحمي شخص ما آخر، وقد تكون فعلية أو رمزية روحية، حماية القبيلة أو حماية الولي...

2- أنظر بصدد واحة مسراتة «كإقليم ومركز خدمات لمساحات شاسعة من الأراضي المستثمرة من المستعمرين الإيطاليين». ف. ف. كوستللو. ترجمة د. أبو بكر باقادر.- **علم الإجتماع الحضري**. التمدن في الشرق الأوسط. دار القلم. بيروت. ص. 62. 1980.

الأجرة، «الجورني»، وهي وإن اتخذت طابعا إجابيا لأنها جد منافسة للخماسة المذلة، تبقى رغم ذلك موصوفة بالدونية هي أيضا وربما بالوصم، وذلك كآلية نفسية دفاعية تعويضية تحاول بها القيم التقليدية الدفاع عن نفسها، تلك القيم المبنية أساسا على التكافل والتعاون والوفاء والتماسك، وإذا بالأجرة يومية كانت أم أسبوعية تزعزع التماسك العائلي، وذلك بمحاولة العمال المأجورين استقلالهم عن العائلة الممتدة. وقد كان ذلك بشكل خجول في البداية، لكن مع كل رجوع من الهجرة، إلى الجزائر أولا وبعد ذلك إلى المدن الداخلية، كثيرا ماتعقبها قسمة إرث ومحاولات تأسيس أسر نووية مستقلة.

وستهتز سلطة الأب اهتزازا كبيرا، إن من الزاوية الاقتصادية أو الرمزية أو المعرفية خصوصا، حيث لم يعد التعلم مهارات شبه طبيعية يمررها الكبار إلى الصغار بطقوس التأهيل شبه السحرية أو بديداكتيك الحفظ في الكتاب. لقد أصبحت المعرفة أشياء جديدة من المفروض على المتعلم أن يمتلكها حتى يلج عالم الحداثة. ولعل أولى هذه المعارف، اللغة الفرنسية التي ستصبح المفتاح السحري لولوج عالم الوظيفة العمومية.

لقد اتخذت مقاومة التدجين تلك أشكالا كثيرة لعل أهمها رفض تمدرس الأبناء تحت ذريعة الخوف من التنصير، أو الإستغراب من جدوى معارف لا تعلم الدين ولا تقوي الشخصية. وستدخل مقاومة التمدرس تلك إلى لاوعي التلاميذ والأباء على حد سواء، وربما شكلت قاع المقاومة الحالية لكل تعلم عصري.

إن تمركز السلطة والتهدئة وتنظيم الشغل والمدرسة كانت العوامل الأساسية التي فجرت الإنتظامات القرابية التقليدية، الأمر الذي تمظهر في الأشكال الجديدة لتنظيم المجال من انفجار القصر «إغرم» والنزوح نحو الفيلاج. بل وفي شكل تهييء الفيلاج نفسه حيث السكن الجديد بعيدا عن طوابق القصر، في منزل عصري بغرف ومطبخ ومرحاض وربما حمام أيضا، تلك المرافق التي كانت غائبة في الشكل التقليدي للسكن.

إن تتبع تاريخ ساكنة الفيلاج يعبر عن تدرج الإنفلات من الإنتظامات القرابية القديمة. بعد الضباط والكوم وبعض معمري الخدمات، إن صح التعبير، سيسكن الفيلاج اليهود والأغراب أولا، ثم بعض من تحطمت لحمتهم العصبية من المستقرين القدماء. وآخر من التحق من لازال يحفظ ذكرى القبيلة واللف.

وربما لازال التحفظ في السكن في الفيلاج ساريا، ليس فقط لاعتبارات إيكولوجية، وإنما لأخرى ثقافية ورمزية.

لم تتخلخل بنية الإنتظامات القرابية فحسب، بل وكذلك الوظائف والأدوار والإتجاهات والقيم. إن «العولمة»[1] الأولى تلك أعطت الفرصة لمن كان يشغل المراتب الدنيا اجتماعيا من خماسين للتحرر من وضعيتهم والعمل على الإلتحاق بصف المالكين بعدما حرموا من الملكية لأزمان طويلة. وقد ساعدهم على ذلك قفزهم على ماضيهم على عكس الفئات الأخرى التي اعتبر تاريخها المجيد عائقا أمام المصالحة مع القيم البراكماتية الجديدة التي ستقطع إلى غير رجعة مع معايير الإقدام والعصبية من جهة أوالكرامة والبركة من جهة ثانية.

وسيتضح الأمر أكثر في ظاهرة الهجرة التي مارسها من كان يحتل السلاليم الدنيا في التراتب الاجتماعي، إلى الجزائر أولا ثم المدن المغربية ثانية ثم فرنسا وأوربا بعد ذلك، في حين أن حمية العصبية وأنفة الأيام حالت دون ذلك الإنفتاح بالنسبة لحماة الماضي. وبذلك تخلخلت التراتبية شبه المغلقة ماضيا وحصل حراك اجتماعي لم تشهد الواحة مثيله في تاريخها، ذلك الحراك الذي نشهد أثره الكبير في حملات الإنتخابات اليوم.

1- أمين، سمير.- **التطور اللامتكافئ**. دار الطليعة. بيروت. 1973.ص ص. 269-279.

III - المدرسة

1 - الجامع وديداكتيك التحايل على الذاكرة والذات، أو الجمود على الموجود

لقد مثل الجامع أو المدرسة القرآنية على الدوام مجال بناء الهوية واستمراريتها بالنسبة لطفل الواحة، كما هو الأمر في جميع بقاع دار الإسلام، وذلك بالتنشئة والتأهيل والتعلم. لقد كان الطفل يجد نفسه منذ سنواته الأولى حتى البلوغ، بل وبعده أحيانا، داخل تعاليم الفقيه مسلكية مزدوجة دينية ودنيوية. وإذا كان البعد الأخروي هنا محوريا نظرا لكون التقوى هي الهدف الأسمى والأول المتوخى من حفظ القرآن، ولو بدون أدنى محاولة في الفهم، إذا كان هذا هو البعد الطاغي، فإن الدنيوي حاضر أيضا عبر التعاطف مع سلوك وخبرة المعلم الفقيه والذي غالبا ما يطبع بشخصيته القوية والمهابة سلوك مريديه مدى الحياة.

هذه المدرسة، إن استعملنا مصطلحات العصر، لا تمثل في غريس سوى الأساسي أو الإبتدائي إن صح التعبير، أما الإعدادي والثانوي فلا يحصل إلا بالسفر إلى تافيلالت ولا يتم العالي إلا بالرحيل إلى جامعة القرويين في فاس.

هذا النظام التعليمي، والذي وصف غالبا وبتسرع في الأحكام بالسلبي، كان جد وظيفي وعضوي ومطابق للبنيات الاجتماعية والذهنية آنذاك. لقد كان بيداغوجيا استطاعت أن تحافظ إيجابيا على الهوية وتأبيد خصوصيتها وذلك بالبعد الديني المتوازن، إن لم نقل المفتح أحيانا للشخصية في تجاوزها للوضع القبلي تجاه الأمة، الأمر الذي يهب الجذور اللازمة والعميقة لشجرة الهوية والكينونة.[1] وبذلك لم يكن الجامع عتاقة ومحافظة تامتين، كما قد تدعي بعض المقاربات العلموية المتسرعة، بل كان بنية فوقية ونظرة إلى الكون وخطاطة ذهنية وإدراكية ومعرفية لمجتمع جد واع بقيمه، ويحاول، كما في جميع المجتمعات، إعادة الانتاج والتوازن بتسامح مشهود، وأحيانا بمعايير ديداكتيكية مقبولة، فارقية مثلا. إنه التقليد في معناه العام.

1- LAROUI, A.- *Esquisses Historiques*. Centre Culturel Arabe. 1992. pp. 99-107.

وانظر أيضا مقاله عن احمد الهيبة في نفس الكتاب.

لقد كان الديداكتيك المتبع في المدرسة القرآنية استنباطيا بالأساس لاعتماده على متن أولي هو القرآن ومن ثمة العودة إليه باستمرار، الأمر الذي يستدعي تشغيل الذاكرة والتحايل عليها بآليات معهودة مثل التشخيص والتكثيف والتلخيص بالأراجيز والهوامش والطرر والمنظومات. كما أن اختلاف السن بين التلاميذ فرض بيداغوجيا فارقية لم تخل من مرونة ومقدرة فائقة على إدارة المتعلمين.

هذا هو الوجه المضيء والإيجابي للمدرسة التقليدية، إلا أن الإستقراء كجانب آخر للعملية الإدراكية كان غائبا، حيث التوافق التامي بين المعلم والمتعلم والجماعة على أن الجديد بدعة. كما أن المستوى المعرفي للفقيه يبعده عن الاجتهاد حتى وإن رغب في ذلك، ومن ثمة الطابع التنشيئي للعملية كلها، ذلك الطابع الذي لا يبعدنا كثيرا عن العمق القبلي التأهيلي. الأمر الذي يقصي الجانب المعرفي والبحث عن الحقيقة. إنها مدرسة إعادة إنتاج المجتمع فحسب، ومن ثمة مصالحتها مع أشكال التأهيل الأخرى غير المدرسية حتى وإن ارتبطت بتعاليم «لائكية» أو وثنية.

لقد تأسست المدرسة القرآنية إلى جانب وموازاة مع التمثلات اليومية، ومن ثمة عدم إمكانيتها إنتاج الذهنية الموضوعية البانية للعلوم، وتلك هي المعضلة بالنسبة للتلميذ التقليدي والذي لازال ربما متمدرسا في مدارسنا حتى الآن،[1] لأنه وببساطة لا يمكن إنتاج الموضوعية في مجتمع لايدركها.[2]

تلك هي الحالة التعليمية التي وجد عليها المستعمر واحتنا، فكيف تعامل مع ذلك الإرث؟

بسهولة وبكل بساطة، لم يتعامل المستعمر مع أي إرث من هذه الزاوية، حيث حاول وبجدية وبصرامة تامتين أن يقطع قطعا تاما مع المدرسة القرآنية. فحتى معماريا تم القطع مع مدرسة محاطة بأسوار المحافظة من سور المسجد حتى سور القصر مرورا

1- Mialaret, G. *Introduction à la Pédagogie*. Ed. P.U.F. 1977.«Savoir par coeur n'est pas savoir, c'est tenir ce qu'on a donné en garde à sa mémoire». p.130.
أنظر أيضا في نفس المرجع، فصل: Tête bien faite, tête bien pleine. pp. 129-134.

2- Laroui, A. *La crise des intellectuels arabes*. MASPERO. 1974. «Le seul élément totalement valable pour la société rural était celui qui raffermissait la communauté; d'où la concentration sur l'aspect juridico-social et la décadence de toute la culture profane». p. 48

بسور سلطة المعلم – الفقيه، لتبنى فصول جديدة ومستقلة خارج سور القصر، داخل المزرعة تارة ومحاداة للحي الإداري تارة أخرى. ولم يكن التنقيل المجالي ذلك اعتباطيا بل كان محاولة تنقيل المجال من المقدس إلى اللائكية.[1]

2 - موجز القانون المدرسي الكولونيالي

في الصفحة الأولى للسجل المدرسي، يحرص على كتابة موجز للقانون الداخلي للمدرسة الكولونيالية. ومن المفيد إدراجه هنا حتى نتبين السياق العام لهذه المدرسة وتوجهاتها وأهدافها.

«تفتح المدارس العمومية لأطفال كل الجنسيات وكل الأديان. إلا أنه، ومادام الأطفال المغاربة، مسلمون ويهود، يملكون مدارس خاصة بهم مكيفة مع إمكانياتهم اللغوية وحاجاتهم، فإنه لا يقبل أي مغربي في المدارس الأوروبية بدون ترخيص خاص من المفتش الإبتدائي.

تقسم هذه المدارس إلى مدارس حضانة وأخرى ابتدائية أساسية. ويمكن إلحاق أقسام أطفال بالمدارس الإبتدائية.[2]

لا يقبل في المدارس الإبتدائية الأساسية إلا الأطفال البالغين سن الخامسة على الأقل والرابعة عشر على الأكثر إذا لم تتوفر حضانة في البلدة وأكثر من ست سنوات وأقل من أربعة عشرا إذا توفرت حضانة.

في مدارس البنات، يمكن للأطفال من الجنسين أن يلتحقوا بالمدرسة منذ سن الرابعة ويشكلون قسم أطفال.

لا يمكن لأي طفل تجاوز سبع سنوات أن يقبل في مدرسة بنات.

1- من اجل جنيالوجيا أنتربولجية للمدرسة المغربية، يمكن أن نستفيد كثيرا من: Khatibi, A.- *Maghreb Pluriel*, *Décolonisation de la sociologie*. SMER/DENOEL. 1983. pp. 47-63.

2- بالنسبة ل «بيداغوجيا الوسط» La Pédagogie du Milieu، والتي لم تكن سوى رغبة استراتيجية في قمع تفتح الشخصية، أنظر: Zougari, A.- L'Ecole en milieu rural. *BESM*. N° 159-160-161. 1988. p. 75.

يمكن لأطفال من الجنسين بلغوا سن الثالثة أن يلتحقوا بالحضانة حسب الأماكن الشاغرة.

خارج الحالات السابقة لا يقبل أي طفل في المدارس دون رخصة خاصة من المفتش الإبتدائي.

على مديري المدارس أن يتوفروا على سجل مرقم مطابق للنموذج المقرر.»

ماذا يمكن أن نستنتجه من هذا الموجز؟

- الميز واضح بين الأوروبي الذي يسجل بدون رخصة في المدارس الأوروبية والمغربي، مسلما كان أم يهوديا، والذي يستوجب تسجيله ترخيصا من السلطات المدرسية.

- الحرص على التمييز بين أنواع من المدارس: الأوروبية وغير الأوروبية المغربية، الحضانة، الإبتدائي، الأساسي، مدارس أطفال.

- توسيع المدى الزمني للتسجيل حتى يشمل غير المتمدرسين، وهي رغبة في توسيع مجال التمدرس ومحو الأمية.

3 - التمدرس وتجلياته البنيوية والمؤسساتية

تأسست المدرسة الكولونيالية بغريس سنة 1935، أربع سنوات بعد احتلال الواحة. وقد تشكل تلامذتها من المقيمين بالفيلاج أساسا من أبناء «الكوم» وباقي الموظفين والتجار وبعض الحرفيين.

ولعل الطبيعة «الديموقراطية» للمدرسة الفرنسية كانت وراء تواجد حتى بعض أطفال الفقراء من زراع وبنائين وحمالين وبائعين متجولين، بل وحتى معدمين، إلى جانب أبناء الأعيان وأبناء الضباط أنفسهم. ولعل الملاحظة الأولى التي كانت تثير الإنتباه لدى فحص سجلات التلاميذ، انقطاعهم عن التمدرس وذلك لأسباب عدة أوردها المسجلون لهذه السجلات من مثل الفشل المدرسي وتعلم الحرف والشغل والطرد بل وحتى بدون أسباب. كما لوحظت مغادرة مكثفة لجميع تلامذة اليهود بين سنتي 1951 - 1960 وهي فترة الهجرة إلى فلسطين.

أما جل الأساتذة فكانوا فرنسيين مع بعض الجزائريين وقلة من المغاربة. وإذا كان هناك نوع من التعامل الديمقراطي في تسجيل جل أطفال ساكنة الفيلاج فإن الأمر كان مختلفا بالنسبة لأهل القصور حيث كان تمدرس الفئات الدنيا، «الحراطين» خصوصا، جد ضئيل، وامتنع الشرفاء والمرابطون والفقهاء عن تسجيل أبنائهم في المدارس المسيحية كما كانوا يسمونها. بل وتم بعض التسجيل عنوة.

أما بالنسبة لنظام المدرسة فقد كان يعتمد على تلقين أساليب الوقاية من نظافة، بل وغذاء إلى جانب الدروس المعرفية، الأمر الذي أعطى للمؤسسة طابعا كولونياليا بالمعنى الضيق للكلمة، حيث كانت الروح العسكرية الانضباطية جد حاضرة.

4 - المدرسة الكولونيالية وصدمة اللقاء أو فوبيا التنصير

عبر الخوف من المدرسة الاستعمارية، والذي اتخذ صورة خواف التنصير رغم غموضه ولبسه، ليس عن الخوف من ضياع العقيدة فحسب ومن ثمة اجتثاث الهوية كلها، بل وعن سيرورة الهوية أيضا وصيرورتها عبر المزاحمة القوية لأساليب التنشئة التقليدية الدنيوية التأهيلية والدينية الميتافيزيقية.

لقد شكل انتصار النصارى، بعلمهم «الشيطاني»، بقوة وسرعة إنجازه، تقنيا وإداريا وعمرانيا تهديدا حقيقيا للأساليب التعلمية التقليدية المبنية على علاقة سلطة حكمة الشيوخ بانصياع الشباب وتقوى المرشد بتبعية المريد. وآذنت الأشكال التعلمية - التعليمية الجديدة ليس بتمرد وثورة الأبناء على الأباء فحسب، بل وبضرورة إعادة النظر في العلاقات خصوصا تبعية الأباء المادية والمعرفية للأطفال الذين تعلموا وبسرعة مالم يمكن أن يتعلمه أي إنسان تقليدي ولو وظف عمره كله.

لقد كانت رجة كبرى في مستوى العلاقات العاطفية حبا وإعجابا وغيرة وتعاطفا واحتراما. وتخلخلت عاطفة اعتبار الذات بين الغرور تجاه التقليد والدونية تجاه الحداثة، الأمر الذي أحدث صورة مشوهة للذات.[1]

1- Khatibi, A. *Penser le Maghreb*. SMER. 1993. pp. 12-18 et 63-65.

لم يعد التعلم إذا تأهيلا للشجاعة والإقدام أو معرفة بنود أعراف القبيلة أو تلمسا غرائزيا فطريا للعناصر واستئناسا بسلوك الطبيعة إما صيدا أو زراعة أو جمع معلومات عن القدرات اللوجيستيكية - المورفولوجية للعدو، كما لم يعد تهيئة الحس والجسد واستنفار الكينونة أو تدبيرا لليومي وللماء ريا وعمارة ووضوء.

لقد أصبح التعلم أشياء أخرى، انضباط ومثابرة لم يستطع الأباء فهم جدواهما فألصقوا بهما الصبيانية، مادام لا يعدان لغزو أو جهاد. حساب وعمليات ذهنية فارغة تبدو لهم مترفة مادامت لاتستدعيهما تجارة عطار ولا حانوتي ولا حتى عد محاصيل. وتأتي الطامة الكبرى في استبدال تاريخ الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين والصلحاء والأولياء والمجاهدين والصديقين والشهداء بتاريخ «شارلماني» و«جان دارك» وتأجيج العداء للألمان. واستبدال لغة القرآن برطانة لاملح ولاذوق فيها. بكلمة واحدة، ليس في المدرسة الأوروبية ما يفرح وليس فيها ما يسعد، إنها باب اجتثاث الهوية والمسخ. ذلك هو التمثل المحلي للمدرسة، مدرسة الحرف والكتابة، تلك الكتابة المهددة وبعمق للذاكرة الشفهية أساس الشخصية التقليدية ومن ثمة الشعور بالرداءة والضآلة والتآكل وفقدان الحس التاريخي. ولم يبق للذات غير حكايات وراء الموقد وسمر الليل وتمرير حكايات الأيام للأطفال تأبيدا لأشكال العتاقة.

لقد أصبح التوجه نحو المستقبل مع المدرسة الكولونيالية يفرض نفسه وهو مستقبل غير واضح المعالم ولم يهيأ له بما فيه الكفاية بالنسبة للذي ألف الإرتكاز دوما على ماض يعرف فيه كل واحد مكانته الخاصة، الحامي والمحمي، الرجل والمرأة، الشيخ والطفل، وكل ذلك في مجال سعيد لاينتج الكآبة أو العصاب حيث الإحساس بالذات والشعور والوعي بها كان جد ضئيل، رغم ما قد يبدو من عكس ذلك، استسلاما للمرشد الدنيوي، الشيخ أو الأخروي، الفقيه أو الولي.

وإذا الذات تتعرى أمام نفسها دون مرشد، وهي غير مسلحة في سياق التفاوت التاريخي، فكانت المزاحمة لمزاج جد طبيعي.

إن فهم الصراع القائم بين الساكنة والمدرسة الكولونيالية لا يستقيم إلا باستحضار صراع الشفهية مع الكتابة، صراع التلقائية والطبيعية مع التكلف والقبض والتدجين.

وهو صراع وإن تم التصالح فيه حول كتابة كلام الله أو المواثيق العرفية حيث الرضى والتوافق في الأول، كما لا يعدو الأمر في الثاني سوى تسجيل كتابي لثقافة شفهية.

لقد جاءت المدرسة الكولونيالية لتؤسس خطاب الكتابة إلى جانب خطاب الطبيعة والشفهية. وكانت الكتابة المدرسية تدجينا، ولعل الاستعمار الجسدي الشبيه بالتهيئة العسكريةن بل والسجنية أحسن تعبير عن ما نذهب إليه، معلم بلباس الغريب يتكلم لغة منفرة تفوح منها روائح طبخ غير مألوف من تبغ وبن وخمر ومقليات ومشويات، وقد كانت كلها ملذات لم يكن يدرك التلميذ المحلي معناها، فتستنفر حواسه وبطنه الجائع باستمرار كلما مر محايدا لسكن أحد الضباط أو الطبيب.

كما أن العين مستنفرة أيضا عندما تشاهد أجسادا شبه عارية تلعب ألعابا غريبة. هذا المعلم الذي يجلس على كرسي خشبي ويكتب على مكتب غريب، في حين كان الفقيه يجلس على الأرض كتلامذته ومن ثمة قربه الشديد منهم وقوة وحميمية التواصل معهم. وتلك المصطبة التي لا مبرر لها سوى التمييز والتفريق، وذلك اللوح الأسود والضرب على أطراف الأصابع بالمسطرة والوقوف على رجل واحدة في الركن دون التفات. لقد كانت كلها أساليب ترويض وتدجين لأطفال لازالت بطولات أبائهم طرية في ذاكراتهم.

لم تكن البيداغوجيا الكولونيالية ديداكتيكا وتعلما بل كانت آلية ضبط ومراقبة، فمنذ تهييء الموقع خارج السور وشكل المباني وأثاث القاعات حتى قانونها المسير والبرامج، كان كل ذلك يمكن أن يلقن أي شيء إلا تفتح الشخصية واستقلاليتها ورشدها.

لقد كانت مدرسة وضعت أساسا لتفريخ خريجين تقنيين لكن بدون مبادرة تمكن من مسؤولية خلق المشاريع أو تتبعها أو تحمل مسؤوليتها.

إن المدرسة الكولونيالية التي اتخذت الحداثة شعارا لها بالعقلانية والوضعية المبنيتين على الانضباط والنظام والمثابرة والنفعية تناست البعد الثالث في المدرسة الفرنسية والذي لا يمكن أن تستقيم أية عقلانية بدونه وهو روح الإستقلال والمبادرة.[1]

1- Durkheim, E. *Education et Sociologie*. PUF. 5° Ed. 1985. «L'esprit de discipline l'esprit d'abnégation et l'esprit d'autonomie». p. 26.

ومن ثمة جاءت مقاومة التمدرس الذي يمكن أن يسحق قيم شخصية انبنت عبر قرون. وقد عبر عن كل ذلك بخواف التنصير لأن المقاومة الميتافيزيقية دوما هي أعلى المقاومات.

5 - الخريج والتجربة غير السعيدة

لقد استطاعت المدرسة القرآنية، رغم كل شيء، أن تدمج خريجها في المحيط الاجتماعي والثقافي لأمته وذلك بالصلاة والقيم المشتركة والنظرة الموحدة إلى الكون. أما الخريج الكولونيالي فرغم اكتسابه حس النظام والعقلانية والانضباط واحترام الوقت فإنه لم يستطع أن يتجاوز كونه موظفا بالمعنى الضيق والدارج للكلمة، موظف عملي يملك حس النظافة، المبالغ فيه أحيانا، تلك المبالغة التي يمكن أن تعبر عن وسواس ما عميق في الذات مع غياب تام أو شبه تام لثقافة تراثية تربطه بالجذور.

لقد كانت بيداغوجيا العقلانية المراقبة والنفعية المرمقة.

إن التجربة غير السعيدة التي عاشها جيل الأربعينات والخمسينات مع المدرسة الاستعمارية، سيكون لها أثر سلبي على المدرسة المغربية المستقلة انطلاقا من عقدة الدونية وسوء تصور الذات.

هل هو ذلك التلميذ الكولونيالي الذي أصبح مهندس المدرسة الحالية؟ صحيح أن المدرسة بؤرة متمفصلة للرهانات الاجتماعية، وهو الجانب الأكثر إثارة للأسئلة السوسيولوجية. لكن عندما تكون السلوكات متخشبة والأخطاء مكرورة والعراقيل والمحبطات مجانية، لابد أن تحضر تفسيرات من نوع تحليل نفسي أو مرضي نفسي، ولا بد من الالتجاء إلى عقد مثل عقدة أوديب مضاعفة (مجتمع بتقاليد ذكورية، الفقر الرمزي والمادي والمعرفي...) كلها قرائن لا تدع مجالا للشك في أن وراء الإختيارات (طول المقررات، الإهتمام بالكم زمنا ومضامين معرفية، المراقبة المبالغ فيها، غياب التنشيط الثقافي، عدم انفتاح المدرسة على محيطها السوسيوثقافي والاقتصادي، عدم تمفصل المستويات بعضها ببعض: الأساسي والثانوي والعالي، غياب وتغييب الإبداع والبحث، عدم تكافؤ الفرص...) كلها مؤشرات تحيل، مع عوامل أخرى، إلى القاع الكولونيالي البئيس للمدرسة المغربية.

خاتمة

ليست الحقبة الكولونيالية جملة اعتراضية بالنسبة لواحة غريس، بل كانت مرحلة حاسمة زعزعت كيان المجتمع كله، إن على مستوى الإنتظام، أم على مستوى السلوك والأفكار، والمواقف والإتجاهات والنظرة إلى العالم.

هل حصل ذلك التغير بشكل منسجم واستراتيجي ومنضج للشخصية وعامل على تفتحها ؟

لقد حاول المشروع الكولونيالي أولا فهم المجال التقليدي الذي لم يعد يعمل سوى على إعادة إنتاج نفس القيم بالتقليد المباشر والشفهية والدين الطقسي والعرف. وبعد ذلك حاول التنقيل إلى العصرنة بالسلطة والإدارة والقمع والمدرسة.

وكاد الثلاثي، قبيلة/مستقرون/سياسة الحماية أن يجتمع، وليس أن يجمع أو يتوافق، ولو بطريقة غير مباشرة حول تهيئة حداثية للمجال عبر التوطين والتكثيف والتركيز. لأنها مجالية تبدو مفيدة ولمصلحة الكل، فهي مفيدة للقبيلة المهددة بالجفاف باستمرار ومفيدة بالنسبة للمستقر وهو الذي يعرف قيمة تنظيم أكثر عقلانية للمجال والذي عايشه عبر نمط العيش الواحي، ومفيدة أيضا بالنسبة للسياسة الكولونيالية لأنه بدون تهيئة وتوطين لن يتم أي شيء بالنسبة لمهمتها «التحضيرية».

إلا أنه ورغم الإلتفاف المبدئي حول ضرورة التهييء، فالتمثل لم يكن واحدا، فالمستقر مستقر وبذلك فهو ليس بحاجة إلى مدينة إضافية جديدة. والقبيلة التي كانت تملك مجالها المادي والرمزي بل والإحتياطي بعمق استراتيجي غير منازع فقدت كل عضويتها وحيويتها.

ومع عمل السلطات الجديدة على تحطيم الزعامات القديمة والرمزية وخلق جديدة قابلة للتدجين والإختراق والإستعمال حتى لقيمها التقليدية نفسها مثل «الشان» استغلالا للأنفة الساذجة التي ضرب بعضها ببعض حتى تخضع لسلطة واحدة.

كما أن المستعمر وبقدر ما أبدى أفعال خير، حاول اجتثاث الهوية واستبدال القيم ونشر رموز جديدة مثل رموز الاستهلاك والتباهي بالملبس والسيارة والأثاث... وهي رموز زعزعت وبعمق السلوك الواحي الزاهد والمتقشف.

كما أنها لم تعمل أبدا على تحرير المستغل والمرأة والطفل، بل على عكس ذلك تماما زكت سلطة المستبد وقوت الأبوية الخانقة فأصبحت مزدوجة بل مثلثة أو رباعية: أبوية الذكورة والقبيلة ثم أبوية المخزن وأبوية المستعمر في النهاية.

بكل ما سبق أفرغ المشروع الكولونيالي كله من شعاراته. وسيتضح ذلك أكثر عند فحص التمثلات.

الفصـــل الرابع:
أشكال المقاومة

لقد حاولنا في الفصول السابقة أن نفحص مجالات التحول نفسها، ونحاول الآن، استكمالا للصورة، أن نفحص أشكال المقاومة و تمثلاتها، تمثل الساكنة، و تمثل شاعرين محليين يمثلان وعي القبيلة بالحدث - الصدمة، وكذلك تمثل مقاوم وطني عانى من السجن الاستعماري بكلميمة، كناطق باسم الوطنية يعرف تمام المعرفة شعاراته ورسالته ويعيها. ثم تمثل روائيين محليين تعرضا للظاهرة الاستعمارية كحدث مندرج ضمن الحياة اليومية للواحيين، وكيف دبرت تلك الظاهرة وماذا مست في معاشهم وحياتهم وما هي حدود المعاناة وأشكال التفاعل. إلى غير ذلك من الأسئلة التي سنحاول بها فحص العملية التحولية، ليس كنصين سرديين أدبيين وإنما كشهادة يمكن استثمارها سوسيولوجيا كعلامات ومؤشرات يمكن أن نقرأ فيها الحياة اليومية للواحة أثناء الاستعمار.

بعد ذلك استخلاص ما يمكن استخلاصه من نتائج كخاتمة للفصل تمهيدا لخاتمة البحث كله.

I- التمثل المحلي للتحول

1 - متن النص الشفوي

«سمعنا عن احتلال النصارى لبودنيب واستنفار سيدي محمد العربي القبائل لصدهم، وكذلك رسالته التي وجهها إلى السلطان المولى الحسن يحثه فيها على الجهاد، والجواب السلبي للسلطان. وكذلك رسالته إلى موحى أحمو الزياني، وكيف رفض هذا الأخير القدوم إلى الجهاد، وكيف استجاب أمهاوش للطلب وقفوله إلى الأطلس بعد معاينة الميدان.

ذهب البعض من هنا، من غريس إلى بودنيب كأول لقاء حربي مع النصارى. بعد ذلك تلتها معارك أخرى، «مسكي» و«البطحاء» و«أمكلكال». عين «بلقاسم» قوادا هنا في غريس واستجاب البعض لدعوته وأنكرها البعض الآخر. نكل معاونه المستبد «باعلي» بكثير من الغريسيين وكان يفرض الزواج من كل قصر يدخله، وكذلك فرض الأتوات على الناس بدعوى الجهاد، لكن قسوته الشديدة نفرت الناس منه ومن دعوة صاحبه، بل ونكل أهل قصر كلميمة بأحد «رقاصيه» حتى يذهب عنهم تسلطه (كان يفرض خبزة

على كل أسرة ترسل يوميا إلى مخازنيته بقصر «مكمان» بأعلى غريس وإلا كسرت مياه الساقية...). كان النصارى يرسلون جواسيس ومخبرين، بل وكانوا على اتصال بالأعيان وبعض القابلين للتعاون والاستعمال وتمت مراسلات بين الجانبين، بل وأعطيت رشاوى لبعض من تفرست فيه القدرة على التأثير. ورحل البعض إليهم في «قصر السوق» وأقام بجنبهم. من بين أولئك الجواسيس يبقى فتان، روكي، «تازياط» أكثرهم لفتا للنظر، وهو شخص غريب الأطوار نصب نفسه سلطانا وكون له حاشية وعبيدا وفرسانا وجوقة، واستطاع فتن الناس بمصباح يدوي كان يسلطه على صور فوتوغرافية يعرضها تحت برنوسه. وقد تمكن أن يوقع العداوة بين أيت «أورير» وأهل»الحارة»، أهم قصرين بتاديغوست، واستمر القتال بين القصرين عدة شهور ضاع أثناءها خيرة شباب الطرفين، وفي الأخير اكتشفت سياسته وحوصر وتم قتله. بعد فحص جثته تأكدت نصرانيته إذ لم يكن مختتنا، جاء ليوقع العداوة بين الناس وهو شكل من أشكال السيبا خلقتها فرنسا هنا ولو من بعيد بعيد.

لقد استقر النصارى بقصر السوق أولا، بعد ذلك انتقلوا إلى "تاردا" - 30 كيلومتر تقريبا عن غريس - ولبثوا بها أربع سنوات. لقد زعزعت معركة تغمرت بالريصاني، والتي انهزم فيها النصارى شر هزيمة من طرف بلقاسم، تصورهم حول المنطقة، الأمر الذي أبطأ العودة إلى الريصاني و الهجوم على غريس حتى تمت المعاهدة والهدنة مع أيت عطا بقيادة عسو أباسلام بعد ملحمة بوكافر. وكان الهدف من المعاهدة تحييد أيت عطا وعزل أيت يافلمان غريس لتسهيل مهاجمتهم. دخل الغريسيون في مهاجمة النصارى ومقاومتهم حتى قبل الهجوم على واحتهم، وكان شكل المقاومة الأول جماعيا وتلقائيا، "عوام"، بدون أي تنظيم وبدون قيادة وبأسلحة بدائية. دخل الغريسيون في معركة جد قريبة من الواحة و خسرها النصارى وانهزموا شر هزمة بل وكادت إبادتهم، وقد ساعد على ذلك الحرارة الشديدة، إنها "تين أمكلكال"، وهو مكان مكشوف ومستو بوغت فيه العدو الذي جاء ليثأر لسرقة الديغوسيين لخنازيرهم التي بقروا بطونها نكاية بالعدو. وهي الفرصة التي غنم فيها الديغوسيون أشياء لم يروها من قبل مثل الأغطية الصوفية والبطانيات، "الكواش"، وبراميل الخمر...

لما استولى النصارى على بودنيب هاجرت ساكنة تالسينت من أيت حمو وأيت سغروشن وإنولين، أربعمائة خيمة تقريبا وستمائة فارس، نحو غريس ومكثوا بها. بعد ذلك جاء انتقام النصارى عنيفا وعلى شكل قصف يومي للقصور بالطائرات. وتحت القصف حاول استمالة بعض الأعيان وطلب من الناس إعادة السلاح مقابل إعطاء التسريح وحرية التنقل. هاجر بعض المحليين إليهم ومنهم من لبث معهم أشهرا معدودة، بل ومنهم من استقر تحت حمايتهم هناك، كحالة بعض من طولب بثأر قتل أو دية. وقد كان النصارى جد مهتمين وجديين في البحث عن كل من يمكن أن تشتم فيه إمكانية الإستمالة أو القابلية للإستعمال كممهدين وحلفاء احتياطيين مقابل الحماية ووعود التوظيف المستقبلي، خصوصا وأن حمايات محلية تقليدية أثقلت كاهل المستقرين وذلك تحت التهديد المستمر والتاريخي للبدو.

لقد حاول النصارى وبذكاء استغلال التقليد المحلي المشهور، «نضربك ومانخلي اللي يضربك». لقد رحل البدو فيما مضى كثيرا من المستقرين وهجروهم ونهبت ممتلكاتهم واغتصبت أراضيهم، لازال الفقهاء الأتقياء يتحاشون الأكل والشرب من ثمار ومياه كولميمة وبالأحرى السكن فيها، والذي بقي من المستقرين ولم يهاجر لم يعتبر سوى مواطنا من الدرجة الثانية، "تاكلا"، المحمي. وبذلك رأى بعض المستضعفين هنا من النصارى منقذا من جبروت إخوانهم المسلمين. كان هناك مؤذن في إحدى القصور المستضعفة يبشر كل صباح بقرب قدوم شخص منقذ ومخلص خلف كل أذان الفجر، وذلك دون تحديد هوية المنقذ، لقد كان يرمز إلى النصارى أساسا.

18 نونبر 1931، والناس منهمكون في تلاوة حزب الصباح في المسجد يباغث جيش الاستعمار كلميمة، نزل إخوانهم الديغوسيون بثقل لإغاثة الكلميميين تاركين واحتهم للنساء والشيوخ ولم يدركوا الخدعة الحربية للجيش الفرنسي الذي انقسم إلى قسمين، لسانين، واحد لضرب كلميمة والآخر لضرب تاديغوست. ولما انتبه للأمر فزع الديغوسيون وفرضت عليهم العودة فورا للدفاع عن قصورهم. ووقعت موقعة "لالة ولية" الدامية بتاديغوست، تلك المعركة التي استعمل فيها السلاح الأبيض والتي التقى فيها الخصمان جسدا لجسد واستعمل فيها النصارى لأول مرة في المغرب كله الدبابة،

"الغولة" والمدفع الرشاش، "المهبولة". ولقد استشهد فيها أبطال محليون كما قتل فيها ضباط فرنسيون. دخل النصارى غريس في نفس اليوم، الصبيحة نفسها إلى كلميمة وتاديغوست في المساء. وفي نفس المساء هاجرت جل الأسر الديغوسية نحو "تاغيا" و"أسول" كنقط لم تصلها بعد السلطة الفرنسية، وقد كانت الهجرة تحت فتوى فقيه غريس الكبير سيدي موح الحاج. لقد كانت الهجرة نكبة بالمعنى التام للكلمة إذ فقد فيها الناس مؤنهم ومنازلهم بل وبعض فلذات أكبادهم.

لم يخف المجاهدون في البداية حيث كان الوازع الديني قويا، لكن الخوف من الإعتقال وترك الأبناء كان رهيبا.

لقد جاء مع الفرنسيين مسلمون جزائريون ومغاربة بل ومحليون. لم يكن هناك أي تنسيق بين القيادات المحلية، هرب "باسو أعدي" قائد بلقاسم، ولم يهرب "علي أحدو" قائد المولى الحسن، والذي لم يدخل قط في صراعات حربية مع النصارى، وعين ابنه قائدا استعماريا لكن لم يدم أمد سلطته. استسلم المسلمون كأطفال أمام جبروت الآلية الحربية وتنظيمها غير المعهودين. واستتب الأمر للنصارى. استقروا أولا في خيامهم أمام قصر إكليمن (كمندار وقبطان وفسيان وطبيب وترجمان) وبعد ذلك مباشرة بدأوا في بناء الفيلاج بأربعة أيام سخرة، كورفي، على كل يافع، لقد كانت نيتهم الإقامة الدائمة إلى حدود زواج بعضهم بالمحليات، توجوا ابن القائد الحسني الديغوسي القديم، باسو أعلي أحدو، لكن لم تدم سلطته طويلا. بعد ذلك اختاروا أحد أعيان قصر إكليمن، هناك عناية خاصة بهذا القصر، إلا أنه وبعد فضيحة فساد بصدد عدم النزاهة في جمع وطحن وتسويق الزيتون عزلوه، وكللوا أحد أغنياء نفس القصر، وقد تمت تزكيته إثر نزهة مع أحد الضباط في المزرعة، وكان الفصل خريفا حيث تنضج تمر النخيل، فأمر الضابط أحدهم بجني تمر نخيل المسجد. وبعد الأكل أخرج المرشح للقيادة بعض الملاليم من جيبه تحت دعوى إبراء ذمته من أكل تمر الوقف، متذرعا بكونه أول مرة يأكل فيها الحرام، وكانت هي الإشارة التي وظف فيها قائد كلميمة. لقد كان من الشروط العرفية المتواترة لدى الغريسيين لتولي المناصب القيادية، الكرم بما يعنيه من فتح باب المنزل للواحيين الفقراء حتى يسدون بعض جوعهم، ولو أن ما يأكلونه ليس سوى بعض فائض

رشاويهم وهداياهم التي توهب للأعيان طوعا وكرها، طمعا في الحماية أو في التوسط أو خوفا من البطش والجبروت.

لقد أدخل النصارى من بين المصائب التي أدخلوها الرشوة و"أيت المجلس" كجماعة لقيطة لم تعرف أبدا كمؤسسة تقليدية مثل "الجماعت"، ويتكون أيت المجلس من الخبراء والمفتين والمستشارين العرفيين في القضاء والعارفين بخبايا وأسرار القصور والمستغلين للكبيرة والصغيرة تحت ذريعة الخبرة.

ويمثل كل قصر واحد أو إثنان مع بعض الفقهاء الرسميين كموثقين وخبراء خط للتمييز بين الوثائق الأصيلة والمزورة "الخرارجية" . وإذا كان قد عرف على الجماعت التقليدية نزاهتها وتحملها للمسؤولية نظرا "لطبيعيتها" وعفويتها ولأن الممثلين فيها يؤخذون من الأفخاذ، فإن أيت المجلس على عكس كل ذلك، لا يعينون سوى وفق الرغبة الكولونيالية تحت مباركة وتزكية القايد، وذلك كله لضرب لجماعت أساسا.

اشتغل القضاء الكولونيالي بالعرف في كل المعاملات وأصر الضباط على جمعها وتدوينها ومعرفتها وخبرتها، وذلك كله بشكل ملفت للنظر. إذ كانوا يجمعون مثلا، الأعراف، "تعقدين" بندا بندا وذلك بإحضار العارفين بها ويسجل الحضور والغياب بغية الزجر والعقاب توخيا للرواية الدقيقة. أما تعاملهم مع الأرض فقد كان مزدوجا، تعويض الأرض المسقية إما بضعف مساحتها بورا أو الشراء، وأدوا أثمنة حتى بعض أشجار النخيل والزيتون. أما الأرض البورية فاغتصبت عنوة كما انتزعت أراضي المهاجرين نزعا تاما وغصبا كاملا دون أي تعويض إلا فيما بعد. وأقيمت على عكس ذلك مشاريع لأيتام المتعاونين على شكل خطارات، "الخطارت نيكوجيلن". ورغم شكاوى من انتزعت أرضهم، فقد اصرت السلطات الأهلية على الغصب وأدخل المالكون، وبعضهم حرمة : شرفاء ومرابطون، السجن رغم تمظهر الفرنسيين أحيانا باحترام الحرمات، والتي لا تصبح كذلك عندما تقف أمام مشروعهم. استعملت أربعمائة دابة في استصلاح الأرض التي سيقام عليها الفيلاج، دار لدار حتى الأرامل.

فرح اليهود كثيرا بالاستعمار، وكانوا أول من استوطن الفيلاج بعد بعض معمري الخدمات الأوربيين. بعد أربع سنوات من دخول غريس، يؤسسون أول مدرسة قرب

الفيلاج في الطريق إلى القصر وبعدها أخرى خلف القصر. وقد بنيت المدرسة هي أيضا بالسخرة. أما المتمدرسون الأوائل فكانوا أبناء الكوم والعسكر والمخازنية، ثم التحق بهم أبناء أسر الأعيان القديمة بقصر كلميمة خصوصا، ربما كفهم مبكر بقيمة التمدرس أو إرضاء لأوامر السلطات الفرنسية. بعد ذلك تمدرس الكل، ورغم قلة الحراطين بالمدرسة فلا يرجع الأمر إلى تمييز ما بل الظروف الاجتماعية هي التي حتمت غيابهم وهو أكثر وضوحا في "توروك" و"ملاعب" عند أيت عطا.

لقد استعبدوا وأذلوا الكل، وفرضوا "الكورفي" على الجميع أربعة أيام في السنة على البالغ "حد الصايم"، ولم يحرروا في ذلك أحدا لا الشرفاء ولا المرابطين ولا حتى الأرامل باستثناء القايد وحده فحسب. وساد الاحتقار الكبير والذل والظلم والقهر...

نزل أحد ضباط الشؤون الأهلية إلى أسفل غريس، واقا، وبه قصر شرفاء معلوم، ولما وصل إلى باب القصر ذاك استقبله أحد الشرفاء بالترحاب قائلا: لقد فرح الكل بقدومكم وما كان من الضابط أن أجاب : لاتكذب بيننا نحن النصارى وأنتم أبناء النبي لا يمكن أن يكون هناك سوى العداوة والخصام.

أقيمت المكاتب في البداية على شكل خيام، باستثناء مكتب ضابط الشؤون الأهلية والذي كان كوخا خشبيا كما أن إقامات الجند ابتدأت أيضا خياما وأكواخ خشبية للضباط. بعد ذلك بنيت إقامات ما فوق الساقية بالتراب المدكوك وجذوع النخيل. ثم أقيم مستشفى متنقل تحت الخيام أيضا، أما الثكنات فجاءت بعد ذلك، ثكنة "الكوم" أولا، وبعدها ثكنة المخزن، ثم أقيمت المكاتب الإدارية ومساكن الكتبة وبعض الإداريين.

لقد بدأت تهيئة الأرض أولا بفرق الجند، وبعد ذلك بالساكنة وذلك من أجل جعلها صالحة للعمران أولا وللبيع للمسلمين واليهود بعد ذلك، أولئك اليهود الذين نزحوا كلهم نحو الفيلاج تاركين ملاحاتهم في القصور. لقد كان وراء ذلك النزوح اليهودي نحو المدينة العصرية اتصالهم المبكر بالأوروبيين، تلك الإتصالات التي كان بعضها سريا. كان أحدهم يهدد الناس بوشوك قدوم المقنبلات الفرنسية وكان الناس يسخرون منه. كما أن الفيلاج جد ملائم لتنمية تجارتهم التي استفادت كثيرا من ريع الطريق وحماية الإدارة الكولونيالية. وقد لحق بالفيلاج بعد اليهود بعض المهاجرين النازحين من واحات

أخرى من قدماء الكوميين وقدماء الجند وقدماء المتعاونين، والذين استفادوا عامة من الحماية وخدمات الإدارة الفرنسية، وكذلك كل من كان له دخل ثابت وقار، ذلك الدخل المميز لهم رغم ضآلته، إذ استطاعوا أن يقتنوا به عقارات وأن يمدرسوا ابناءهم. ثم بنيت حانات و"كفتريات" وبقالات عصرية يديرها يهود أو فرنسيون أو أوروبيون. كما أقيم مخزن كبير لشركة فرنسية وحفر بئران وأسس ماخور ليطفيء ظمأ الجند والمعمرين الجدد الذين كانوا غرباء في جلهم وعزاب كذلك. أما النساء المحليات فلا علاقة لهن بالفيلاج البتة. بعد ذلك هيئت ملاعب للتينس ومسالك للخيل ومسبحا ومكتبا للهاتف. وتوج الكل بتشييد السوق ونظمت التجارة وبدأ الفيلاج يستقبل سلعا لا عهد للواحيين بها مثل الكتان والسكر والشاي والشمع، وتحسنت ظروف العيش كثيرا.

لقد كانت التراتبية الإدارية على الشكل التالي: الكومندار قائد رئيس المركز، قبطان مكتب العدالة، ليوتنان رئيس الملحقة، ثم رئيس الموقع العسكري وطبيب وممرضين مسلمين. مع حبس الوطنيين ب"أغبلو نكردوس" قربوا الإدارة من المواطنين وحل الكولونيل، الذي كان يقيم بقصر السوق، بوكلميمة بدل الكومندار. وهيء مكتب للقائد والشيوخ وكلف القائد غالبا بالذعائر كسلطة تنفيذية تحت إمرة السلطة الاستعمارية. كما هيء مكتب عرفي لأيت المجلس وكاتب ضبط تحت السلطة الكولونيالية أيضا.

أما وظائف ومهام ضابط الشؤون الأهلية فمتعددة ومزيجة بين ما هو عسكري وما هو سياسي وما هو إداري وقضائي. أما الكتبة فمنهم الفرنسيون وبعض المغاربة. بعضهم مكلف بضبط وثائق القضاء ككاتب ضبط والآخر بربط العلاقة والتواصل مع القايد والشيوخ أو تنظيم المعاملات التجارية بالسوق وجباية الترتيب وهو غالبا كاتب - محاسب. وكان ضابط الشؤون الأهلية يتكلف أيضا بتنظيم السفر خارج الإقليم، حيث كانت الحدود جد واضحة، بل ومرسومة بدقة بين إقليم وآخر، كما وضعت أيضا حتى بين القصور أثناء الطاعون.

أما بالنسبة للمدرسة، فقد تخرج الفوج الأول بدون أية شهادة ولم تعرف المتوجين بالشهادة إلا في فوج جوان 1950. لقد كانت مكونة من ثلاث قاعات مجهزة بالكراسي والطاولات والسبورات، كما كانت مجهزة بحمام رشاش ومطعم وحديقة. لم

تكن العربية مادة دراسية في البداية، وكانت تدرس الفلاحة بدلها. كان المدير فرنسيا أما المدرسين فأغلبهم مغاربة مع بعض الجزائريين وقد كانت المواد المدرسة هي المحادثة والنحو والمعجم والإملاء والإنشاء والحساب والعلوم الطبيعية ببعدها العملي الإجرائي التجريبي ثم الرياضة والفلاحة. وقد اعتنت المدرسة كثيرا بالسلوك المنضبط والمثابرة والنظافة والوقاية من الأمراض وذلك بزيارة المستشفى كل يوم سبت، وقد كان الإعتناء بالعيون شديدا نظرا لتفشي وباء الرمد في الواحة آنذاك. أما الهدف التعليمي من المدرسة فقد كان جد واضح وهو إبقاء المتعلم عند مستوى معرفي معين مع العناية أولا باللغة الفرنسية معجميا وتركيبيا ونحويا، كتابة ونطقا وقراءة. وكذلك محاولة إتقان التواصلين، العمودي معلم / تلميذ، والأفقي تلميذ / تلميذ. تعتبر اللغة الفرنسية إذا أساسية وهي وسيلة لتعلم بعض نتف العلوم الطبيعية وبعض الحساب. وهي مدرسة رغم جودة التعلم فيها، كانت مبنية على الاستخدام، ولو من بعيد.

لقد عملت السلطات الاستعمارية على تنمية المزروعات حيث فرضت التشجير (خمسة عشر شجرة أثل لكل "توكورت").

طغى القضاء على تقسيم السلطات الكولونيالية لمهامها ووظائفها الإدارية، إذ اهتم ضابط الشؤون الأهلية بالمدني ومعه المترجم وكاتب الضبط والفقيه وأيت المجلس، والقايد هنا بالمرصاد، أما الجنائي فتتكلف به تنفيذية القايد كشرطة قضائية. ويقضي ضابط ومعه فقيه وموثق، وبعده الإستئناف بقصر السوق.

تشمل سلطة القايد الدائرة بأكملها، غريس - كولميمة وتاديغوست وتلوين والواحات المحيطة. وتحت إمرة كل أمغار مجموعة قصور أو قصر واحد إذا كان كبيرا. أما المقدم فهو أمغار قصر واحد والمعين كبير الجماعة والجراي مساعد الأمغار يختاره ليس كمستشار وإنما كوسيط وساعي بريد حامل رسائل ومخبر كما يدل على ذلك اسمه. وشكلت شرطة محلية يختارها الأمغار وتتشكل من "أمغار نييكران" - حارس المزرعة والحقول - ينظم الآجال ويحرس الغلل ويملك سلطة تنفيذية رائعة وصلت إلى حدود الأسطورة مع الأمغار الشهير، "احمد أحدى" والذي كان متواجدا بشكل لم يستطع الأهالي تفسيره إلا بعد موته وذلك باختياره لمعاونين لا يعرفهم الناس من جهة، وكذلك

لامتلاكه نظارات مكبرة سلحته بهما السلطات الأهلية. إلى جانب أمغار نييكران هذا كان هناك آخر، " أمغار نتركا" - حارس الساقية - ينظم هو أيضا آجال دوران الري وهو من الضرورات الإدارية الحيوية للواحة.

لقد كان هناك تضخم كبير في السلطة والإدارة، وهو تضخم لم يألفه المحليون، الأمر الذي يفسر ربما كثرة النزاعات ولو لأتفه الأسباب. لقد كان الغريسي مضغوطا إلى حد كبير وأدنى شيء يمكن أن يحدث لديه الإنفجار. للأمغارين نصف راتب القايد.

استعملت السلطات الكولونيالية عدة أساليب عنيفة، جسدية ورمزية من أجل إخضاع وإذلال الساكنة مثل ضرورة التحية العسكرية لكل فرنسي، "بوجور"، " كاردافو". إحراق الطرابيش الوطنية، حلق الرؤوس وإحراق الشعر و الضرب وفرض الجري والركض ذهابا وإيابا لمسافات جد مرهقة. وفي المدرسة عمل كثيرا على تطويع الجسد بالضرب على أطراف الأصابع وبالإيقاف على رجل واحدة في زاوية القاعة، وأشياء أخرى مثل اختراع عصى العار يمررها التلاميذ بينهم كلما تكلم أحدهم باللغة الأم وآخرهم يأخذ علقته في المساء.

واندهلت الذات الجائعة أمام روائع الطهي الأوروبي المترف، وتمزقت أمام نعوت الاحتقار. تذرعت السلطات الاستعمارية، من بين ما تذرعت به في إنشاء الفيلاج، بإيواء الفقراء والسابلة والمهاجرين، بل وفرضت البناء على بعض الأغنياء التجار خصوصا. أثار حفر جبل "أسدرم" وتسويته لتهيئة الطريق حفيظة ودهشة المحليين وأنشدوا في ذلك أشعارا يرثون بها الجبل ويستبكون الجبال الأخرى والوهاد. لقد جاء موقف الواحيين من إقامة الفيلاج سلبيا وكان رفضا شبه مطلق، خصوصا بالنسبة للإثنيات التي لازالت تحتفظ بذكرى القبيلة واللف. واستفادت الإثنيات التي تحطمت عصبتها ولحمتها السلالية في الإنتقال إلى الفيلاج رغم قلتهم في البداية. ورغم إظهار التشجيع في السكنى في الفيلاج فقد كانت هناك مضايقات عرقية كولونيالية حالت دون ذلك.

تضرر الحراطين والشرفاء والمرابطون وأبناء الفقهاء كثيرا من السياسة الجديدة التي حاولت إدماج قدماء الغزاة لغريس رغم كون الكل قاوم الاحتلال. فقد كانت هناك استراتيجية الدمج واضحة في تعيين المسؤولين الكبار القواد مثلا من قدماء غزاة

الواحة. كما تمت استمالة تمدرس أبناء الأعيان رغم التمظهر بفرضه على الكل. بل ويتحدث عن بعض الإنتقاء العرقي الطبيعي في اعتماد فيزيولوجيا التلاميذ والاهتمام بأشكالهم وألوانهم. مع الإعتناء بكل من يفرض نفسه ويبدي الإقدام والشجاعة تجاوزا لإثنيته وصفه الاجتماعي. إلا أنه لوحظ نوع من الإكتظاظ رغم كل شيء، وذلك أثناء المطعم المدرسي، كما أن بعض الألبسة الأوروبية، القميص والبنطال والكندورة، وكذلك الأدوات المدرسية المهداة إلى التلاميذ شجعت كثيرا على التمدرس خصوصا وأن "قشاب" الصوف التقليدي أكل من أجساد الأطفال، كما أن حساء الحمص كان جد لذيذ ومغر بالنسبة لأطفال لم يعرفوا المادة الغذائية تلك في حياتهم بل وحياة آبائهم كلها.

يستغرب قدماء التلاميذ من الإحترام الشديد والمبالغ فيه الذي كان يتمتع به الطبيب من طرف الجالية الأوروبية، وهو احترام تجاوز حتى احترام الضباط ومدير المدرسة.

يعتبر اليهود فئة جد متمدرسة إلى حدود 1951 حيث بدأت الهجرة إلى فلسطين. كانوا يغادرون المدرسة في حصص دروس العربية. لم يكن يستقر المسؤولون الفرنسيون هنا كثيرا. كان التلاميذ المسلمون واليهود بل والفرنسيون يدرسون بنفس المدرسة بل وفي نفس القاعة، وأحيانا يشتركون في نفس الكراسي والطاولات. بدأ تمدرس بعض الفتيات المغربيات، وهن الآن أمهات ناجحات. كما كان هنا من بين المدرسين بعض الجزائريين بجنسية فرنسية. لم يكن اليهود يشغلون وظائف كبرى، كانوا إما تجارا، ولم تكن تجارة جيدة، حيث لم تساعدهم الأعراف المحلية على تنمية الثروة عند منع الرهن لهم مثلا. وقد شغلوا حتى مهنا حقيرة كإسكافيين وحلاقين وعطارين وخياطين. كما اشتغل بعض الفرنسيين المدنيين مهنا بسيطة أيضا ككتاب ضبط، بل وحتى مخازنية مساعدين أو مدير البريد أو معلمين. وكان الجزائريون يسلكون نفس سلوك الفرنسيين.

حل الجفاف مع النصارى، وظفت النسوة في جمع الحطب، كل حمل امرأة مقابل قليل من الشعير والأرز. فرضوا الترتيب - الضريبة العينية - على كل شيء بما في ذلك الأشجار والدواب. احترموا الحرمات - إكرامن والشرفاء - في البداية فقط، بعد ذلك فرضوا عليهم نفس خدمات الآخرين. لقد كان موظفوا السلطة الاستعمارية من

المسلمين يوشون بإخوانهم "يوصلون" ولا يحكمون، لاسلطة لهم إلا القايد الذي فرض تسلطه سلوكا جديدا لم يألفه الناس، من قبل دفع الرشاوى حتى في أخذ المعونات أو عدم أداء خدمة أو ذريعة. استنجدت الأمهات ببركة مولاي عبد القادر الجيلالي والأولياء الآخرين حتى لا يتمدرس أبناؤهم. لا أحد استفاد من الاستعمار.

بدأ التقطيع الترابي يتضح، تاديغوست مثلا وحدة وكولميمة وحدة. صحيح لم يعد هناك "جياشة" وقطاع الطرق لكن الجفاف فرض اللصوصية والسطو على المنازل داخل القصور. ثم بدأ السفر خارج الواحة، وأعطي التسريح للحراطين فنزح معظمهم نحو سهول ماوراء الأطلسي، وافتقرت الواحة إلى يد عاملة هي في حاجة إليها. وزادت الحرب العالمية الثانية الطين بلة، ولم يعد هناك أدنى أسباب الترفيه وغابت المؤن والكتان، وبدأت بعض الأسر تتقسم وتتفكك، إما طبيعيا نظرا لطبيعة السكن البدوي وإما دينا حيث رفض بعض الفقهاء أن يختلط الأخ بزوجة أخيه. إلا أن العمل المأجور كان العامل الأساسي. وبدأت تستفحل بعض المعاملات التجارية الرأسمالية، وتفشت الديون والرهن واستفاد المرابون، اليهود منهم بالخصوص.

لم يقبل الاستعمار أحد، وغير المتمدرسين أكثر، أما المتعلمون فقد أبدوا سلوكات جد موحية وجديدة بالنسبة للواحة، من مثل الحاجة إلى التفوق والتميز والخروج عن المألوف وفقدان الإنتماء وأزمة التواصل مع الماضي، رغم عدم القدرة على الإنفكاك التام عن القيم والمعتقدات التقليدية.

لقد كانت الإيجابية الوحيدة للا ستعمار هي الأمن وبعض المشاريع التنموية من مثل بناء الربطات والسدود والإعتناء بالقنوات والسواقي وكذلك بعض الإعتناء بالوقاية والصحة والجسد، أما المدرسة فخلقت عقوقا لأبنائنا تجاهنا.

لما حل الاستعمار لم يجد ساكنة كافية رغم تمركزها الشديد في بقعة خضراء صغيرة. ورغم أجرة "الدزاير" والشوانط لم يحدث الأمر تغييرا كبيرا، لا على مستوى بناء الأسرة ولا على مستوى السلوك. ولم يحدث التغير في حقيقة الأمر إلا إثر الإستقلال مباشرة. ويرجع الأمر أساسا إلى التمسك بالقيم التقليدية والدينية من جهة والأجر الزهيد الذي كان يتقاضاه العمال مقابل أشغال جد متعبة. إلا أن التغيير - رغم كل

شيء - بدأ في اللباس مثلا، حيث ظهر هناك ثوب اسمه "جاي جاي"، وللإسم دلالة حتمية وقدرية مايقع. كما بدأت مواد غذائية جديدة تفرض نفسها وتنتج ذوقا جديا من مثل الطماطم والبيض والأرز مع العلم أن الذوق المحلي خبزي ولحمي بالأساس، اللحم والحليب كرمز للبداوة والقمح كرمز للمستقرين، أما الطماطم والبيض فقد كانتا ترمزان إلى الحماية حيث لم يكن يستهلكهما سوى اليهود.

جاء النصارى بآلات عجيبة لعل أهمها كان التليفون والسيارة والراديو، وقد أصيب الناس بالهلع تجاهها وكفروا في البداية كل من تعامل معها، استهجن قطب الطريقة الدرقاوية بمكناس نظرا لاستعمال نسائه التلفون مهاتفة مع نساء النصارى. ورغم كل ذلك فقد لعب البعد الجغرافي والمسافة دورا حاسما في أثر الاستعمار، حيث مس الواحة - المركز - الفيلاج ولم يلحق أثره بعض الواحات الأقمار والقصور.

شكلت المقاومة السياسية، رغم خفوت حدتها، بارق أمل بالإستقلال على عكس المقاومة المسلحة والتي كانت رغم قوتها لم تثر كثيرا من الأمل. لعب الراديو في نشر المقاومة الوطنية والإحساس بالوطن دورا كبيرا، وكذلك فعلت بعض الرموز مثل الطربوش الوطني وكذلك سلوك بعض النقابيين من معلمين وحتى عمال، جلهم وفد من المدن الداخلية وبعضهم نفي منها. وأصبحوا النموذج الحداثي المحبب بل والمثير للإعجاب في لباسهم الأوروبي لكن بطربوش وطني، وبسلوكهم الحداثي والذي كان يتحدى النصارى كرامة بعدم أداء التحية المعهودة مثلا، بل وحتى مظهر استهلاكهم المترف حيث استطاع المدنيون هؤلاء إظهار كثير من الرخاء لم يألفه المحليون. وقد استورد بعض التجار الذين كانوا يسافرون إلى فاس خصوصا بعض أخبار الوطنية. وبدأت السلطة الاستعمارية تهتز وأصبح القايد مذلولا.

جاءت مرحلة أخرى في المقاومة أكثر تنظيما وأكثر مباشرة حيث بدأ الناس يتعاهدون ويقسمون على المصاحف. وبدأت أفكار حزب الإستقلال والشورى تنتشر عبر التواصل المباشر أو بالجرائد، بل وتشكلت خلايا حزبية سرية. إلا أن طبيعة حزب الإستقلال المبنية على الإبتزاز وعدم التنسيق فيما بين الخلايا نفسها، وكذلك فيما بين الأفراد وعدم فهمهم الدقيق والواضح لمهامهم، كل ذلك حال دون مقاومة منظمة

وناجعة وفعالة على عكس ماحدث في المدن. صحيح أنه وجد بعض السلاح عند بعض الناس، لكنه لم يكن سلاحا بالمعنى الكامل للكلمة، كما أنه لم يستعمل. لقد كان "زايد أحماد" المقاوم الحقيقي في الواحات.

"ايقظني من قيلولتي تحت شجرة رجل بلباس وطني وأعطاني كتابا ذهبت به إلى الطلبة، ابتسموا وتهامسوا فيما بينهم: هذا هو العهد الجديد، تلك كانت بداية الوطنية..."

مع الإستقلال مباشرة لم ينتقم من أحد إلا القائد وحده، وهو وحده أيضا الذي لم تكن تجري عليه الكلف، ابتزوه وأخلوه من منزله وضربوه حتى اشترى آخرون أنفسهم وهرب البعض.

في حفل الإستقلال تمت تنحية البدو منه، الأمر الذي أعطى مرارة لم تنس وكاد الإنتقام أن يتم مع محنة "عدي أبيهي" لو استمرت بعض الوقت."

- في سياق المقابلة

تعاملت مع المقابلة في هذا العمل كوسيلة استكشافية، تجاوزا للمهمة التأريخية التي اشتغلت بها في البحث السابق. حيث حددت لها هدفا إجرائيا هو رصد تمثلات الساكنة حول التحول الذي أحدثه التدخل الكولونيالي في بنيات الواحة، وذلك وفق مؤشرات ثلاث متمفصلة وهي:

المجال؛

وانتظام السلطة؛

والمورفولوجيا؛

ثم الثقافة والتوجهات والقيم.

وهي مؤشرات استقرائية اكتمل لدينا قرار اتخاذها واختيارها انطلاقا من قراءة الميدان نفسه عبر نتائج البحث الأول من جهة، ومن قراءاتنا للأدبيات التي اشتغلت على الواحة من جهة ثانية.

وقد فرض الهدف ذاك والمؤشرات تلك أن تكون المقابلات مفتوحة ونصف موجهة، مادمنا بصدد رصد التمثلات، ومن ثمة الحرية النسبية التي يجب أن يتمتع بها المستجوب، الأمر الذي أضفى على اللقاءات طابع العفوية والتلقائية، إذ يمكن مثلا قطعها والعودة إليها بعد زمن، لكن مع حذر شديد في البقاء في إطار المؤشرات وعلى أن تكون الإجابات تمثيلية أو شبه تمثيلية لأننا وببساطة لسنا بصدد قياس الرأي الذي يستوجب المقابلة الموجهة أو الإستمارة حتى.

لقد فرض الهدف ذاك أيضا استهداف فئات عمرية مختلفة، الشيوخ الذين قاوموا الاستعمار مقاومة عقائدية عنيفة، والكهول الذين عاينوا الظاهرة وغيروا أشكال المقاومة نحو ردود أفعال أقل عنفا لكن أكثر دلالة وتعبيرا، ثم قدماء التلاميذ في المدرسة الكولونيالية.

حيث سطرت للمقابلة استحضار أشكال العلاقة بين الفئات العمرية تلك والظاهرة الكولونيالية. كيف فعلت التنشئة الكولونيالية في من كان طفلا، وكيف عانى الشباب من السخرة، والكهول من الدسائس، والشيخ والمرأة من اللامبالاة والإقصاء والتهميش.

كما حاولت، استكمالا للتمثيلية، استحضار أشكال الإنتماء الإثني والسلالي والمورفولوجي ثقافيا وتراتبيا، وكيف تعاملت السياسة الأهلية بدينامية ومرونة جعلتها تغير أساليبها حسب المقام الإثني أو الزمني.

لقد كان تعاملها قاسيا مع البدو مثلا نظرا للطبيعة القتالية العنيفة لمقاومة هؤلاء، إلا أن المعاملة تلك لم تكن مبدئية وانبنت كأي تعامل سياسي على الرهانات ولعبة موازين القوى، بل والإنصات للدسائس حتى. وذلك كله رغم ما طبع المشروع الكولونيالي من انتهاج سياسة الأمر الواقع وإبقاء الأشياء على ماهي عليه **Ie statu quo.**

وقد انبنى اختيار عينة المستجوبين على معايير أهمها:

- الحس الاجتماعي الذي يتميز به بعض الأشخاص دون البعض.

- المعاصرة

- المشاركة، ولو من بعيد، في الإستشارة أو اتخاذ أو تنفيذ القرار.

- تمثيل الفئات الاجتماعية حتى لا نشعر المستجوب بفرديته.

- تمثيل الفئات العمرية.

وقد أملى المعايير تلك وعينا بهدفنا الذي لم يكن الحصول على معلومات واقع وأحداث من مخبرين أو رواة، بقدر اهتمامنا بالتمثلات التمثيلية رغم عدم إهمال المقارعة **Ia confrontation** والتي لم يكن الغرض منها التوثيق المونوغرافي، بقدر الحرص على متن "حقيقي" **Véridique** وليس حصيلة استيهامات حماسية تعويضية رغم عدم نفينا لوجودها فيما حصلنا عليه. وبقي رصد الحدث دليلا مؤشرا أو أسلوب حجاج.

لقد كانت استراتيجية العمل أيضا محددة وواضحة. بحث مسبق وتحري عن القيمة التمثيلية للمخبر، ثم الإعلان المختصر عن العمل، وبعد ذلك محاولة كسب الثقة بإعطاء الجدوى للفعل كله، والقيمة لما سيبوح به لإذكاء حماسه، أو الإستفزاز بالرأي المضاد إثنيا أو تراتبيا أو عمريا، وذلك كله مع مراقبة شديدة حتى لا يستفحل الحماس فيصبح مناسبة لاتخاذ الموقف ليس إلا.

ورغم وضوح هدف البحث، ورغم تحديد مسبق للمؤشرات واستراتيجية العمل، رغم كل ذلك فقد اعترضت المقابلة عوائق اصطلحت على تسميتها بالتواصلية، وهي من قبيل جهل أو تجاهل أو نسيان العوائد، إذ خسرت مخبرا اعتبرت رفضه للمقابلة خطأ فادحا في التقدير، لقد خسرته بسبب عدم ذهابي الشخصي لإحضاره وإرسالي طفلتي الصغرى له بدلي، وهو من المسنين الخبراء في الواحة كلها. كما يمكن أن يعرقل نسيان الوضع الإنساني للمخبر التواصل معه، إذ رفض المقابلة أيضا مخبر آخر رغم قرابة غير بعيدة تربطه بالباحث، رفض المعني هنا أن ينبس بكلمة وهو المعروف بثرثرته وحبه الشديد للحديث عن المرحلة الاستعمارية وقد كان موقفه ذاك تحت سلطة طمع في وليمة محتملة أو مقابل مالي.

إن ملحمية المرحلة المراد بحثها والمرحلة التي سبقتها، السيبا، ألجم بعض المستجوبين في التحدث عن أحداث عصيبة. ورفض بعضهم آلة التسجيل، اكتشفت بعد

ذلك إعداده لملفه الإداري حول تعويضات المقاومة. كما رفض آخر الإستمرار في الكتابة وسط الحديث عن بعض التفاصيل ذات الصبغة الدموية السيبة.

لم تكن العوائق محبطة، بقدر ما أفادتنا إبستيمولوجيا بضرورة إعداد جيد وتسبيق تحريات ملائمة ذات صبغة استخبارية وتوثيقية لكل مقابلة تمثيلية حتى ولو كانت استكشافية أولية.

لقد ساعد الإعداد ذاك والحذر ذلك على أن يكون الحوار سيالا في غالب الأحيان. كما عمل انتماء الباحث الإثني إلى سلالة محايدة - إن كانت هناك سلالة محايدة - على تسهيل مأمورية البحث. بل ومن المبحوثين من لم أبحث عنه وجاءني عن طيب خاطر، وبعضهم اعتبر البحث قد ينير خبايا تظلم لم تنصفه فيه العدالة. ومنهم من أفادني بوثائق معلنا عدم معرفته بقيمتها أو أنها قد تصلح لشيء، بل وجاء بعضهم بهدية.

أما جودة اللقاءات فقد كانت متفاوتة، حيث كانت الجلسات مع قاضي كلميمة جد مثمرة، وكذلك مع الشاعر عمرو أومحفوظ، رغم ما شا بهما من بعض الفردية والنمطية تبدو في نرجسية مبررة. كما وقع نفس الشيء مع أبناء الأسر العريقة والأعيان وبعض قدماء التلاميذ أو من كان لهم نفوذ ما ولم يعد.

لقد أفادتنا اللقاءات المتكررة فوائد تقنية ومنهجية وابستمولوجية استقرائية لم نكن لنحصل عليها لولا المتن الشفوي الذي استطعنا تشكيله. حيث اكتشفنا مثلا كون النسيان شكل من أشكال المقاومة، لدى النساء خصوصا، وكذلك اختيار بعض الأحداث بدل البعض وبعض التيمات دون أخرى. كما لاحظنا بعض الخوف وبعض التحرز لدى من شارك ولو من بعيد في اتخاذ أو تنفيذ القرار. كما فاجأنا كون المتعلمين أكثر انحيازا وتضخيما للخطاب وكذلك لدى منتجي الفن، الشعراء هنا على الخصوص.

لقد تعامل الجل بالاستعارة وأسلوب الغمز، ومن ثمة ضرورة العمل على فك شفرات الرموز. ورغم العمل على التخفيف من الفردية والحماس فقد كانا يطفوان من حين لآخر. وكثر توريط الذات في الأحداث الدرامية منها خاصة، أنا من فعلت. نحن الذين فعلنا. أنا أول. إنه آخر.كما لاحظنا بعض المسكنة واحتقار الذات حتى وبعض

محاولات التبرير رغم ما قد يبدو من عكس. كما كان بعض المستجوبين يسأل عن أحداث ولا يريد إلا الإجابة عن أخرى، وقد طغت العودة باستمرار إلى الجينيالوجيا وهوس البدايات. كما كان حماس الحكي والسرد كثيرا ما يخبو كلما ابتعدنا عن الماضي القريب، اللهم إذا دخلنا في الأسطورة المفسرة لكل شيء والمجيبة عن أي سؤال.

لم تكن المقابلة دائما مباشرة، فقد لجأنا إلى من يخبرنا عن آراء ومواقف الآخرين الغائبين أو الذين تعذر لقاؤهم المباشر.

كما قاد المقابلة أيضا وعينا بكون التاريخ ورقة من أوراق الحاضر كثيرا مايستثمر في رهانات اليوم، وفي هذا السياق نفهم عدم إمكانية تجاوز التمثلات الإثنية وهي أساسية في الواحة، مثلا في التصور التاريخي بل وفي إنجاز الحاضر، الإنتخابات مثلا.

لقد كان زمن السرد متعددا، من زمن ملحمي أسطوري إلى زمن تاريخي حتى زمن الجهاد والزمن الحاضر.

كما لاحظنا أهمية البعد الثقافي وخطورته وقيمته القصوى والتي تتجاوز حتى الإثني بمعناه الضيق.

أما المعايير التي تحكمت في صياغة محاور المقابلة وأسئلتها هي:

- معيار مجال الفعل الكولونيالي:

مجال السلطة؛

مجال المورفولوجيا؛

مجال القيم والتوجهات؛

- معيار التحقيب التاريخي :

المرحلة العسكرية : 1933 – 1937؛

المرحلة الإدارية العسكرية : 1937 - 1944 – 1953؛

مرحلة التغير السريع في التوجهات والمواقف: 1953 وما فوق؛

معيار الفئات الاجتماعية:

فئات السن:

البالغون وما فوق، كل من استطاع حمل السلاح والمقاومة ولم تمسه التنشئة الكولونيالية المباشرة؛

الأطفال غير المتمدرسون آنذاك؛

المتمدرس الكولونيالي؛

- الإنتماء الإثني:

العوام المالكون: البدو ثم المستقرون؛

العوام المعدمون: الحراطين؛

إكرامن والشرفاء؛

هكذا اعتمدت المقابلة كلها على معيارين اثنين أساسيين: معايير اختيار عينة المستجوبين ومعايير صياغة محاور المقابلة. أما معايير شبكة التأويل فسنعود إليها عند القراءة.

أخيرا، وليس آخرا، لقد تعمدنا سرد ووصف مطبخنا الداخلي - وهو مالايحتمله الباحثون ويعتبرونه مملكتهم الخاصة وشؤونهم الحميمية، وذلك حتى نعطي الصبغة الفعلية للبحث الذي هو بحث نملك وعينا حوله و أن فيه شيء مما نريد البحث عنه وفيه، أفكارنا وتمثلاتنا عنه، تحرياتنا الأولى الأدبية والمنهجية، محاولاتنا وأخطاؤنا، تيهنا ونحن في الطريق، إسقاطات لاشعورية ربما لبحوث أخرى، بل وبحث الديبلوم مثلا. لقد كانت التصنيفات المونوغرافية، وفصول بحث الديبلوم مستحوذة علينا ولم نستطع التخلص منها إلا بالحوار المثمر مع الأستاذة المؤطرة، والتي نبهتنا إلى خطورة البحث المسخن **Le réchauffé**. ومن ثمة أفضلية إعادة كل شيء انطلاقا من حيثيات الموضوع والميدان أساسا. كما استفدنا من الحوارات مع المؤطرة أيضا أهمية التأويل بآليات القراءة من جهة والقراءة التركيبية من جهة ثانية، دون إغفال للأدبيات الملائمة ودون أي طغيان للنظريات والنماذج.

ويدخل كل هذا في سوسيولوجيا تأملية واعية بكون الباحث فاعلا اجتماعيا.

إن النتائج لم تكن أبدا أمام أعيننا، بل تركناها للميدان والتحريات حتى تكون لها المصداقية العلمية.

2 - قراءة المتن وتأويله

لقد استطعنا جمع متن النص الشفوي ببنائه وتشكيله وتركيبه من المقابلات جزءا جزء، مع حذف التكرارات المطلقة ودمجها عندما تكون المعطيات متطابقة، كما تركنا الدال منها على اهتمام. كما حاولنا أن يكون ترجمة أمينة من الأمازيغية والعربية بل والفرنسية الى لغة وسيطة ومقروءة. وبكل ذلك حصلنا على نص تحايلنا على خياطة مكوناته ترميقا.

أما فيما يخص شبكة التأويل فقد حصرناها في أسئلة محورية هدفها الفهم والتحليل الدلالي، ومن ثمة عدم انشغالنا بالتكميم وصياغة الجداول نظرا لتعقد الوقائع وتداخلها. أما التفسير فقد اعتمد على التكرار دون تعداد.

إن اعتماد تقنيات مختلفة (الملاحضة والمقابلة وتحليل الوثائق) لكفيل بتقريبنا من الميدان عبر مقارعة نتائج التقنيات.

أما الأسئلة التي قادت وأطرت التأويل فهي: 1 - المخاطب 2 - المخاطب 3 - سمة المتن 4 - لغته 5 - أسلوبه 6 - مستواه 7 - النسق الاجتماعي 8 - النسق المـعرفي 9 - الحجاج 10 - الإستنساخ 11 - التناص. 12 -بياض النص 13 -القاموس 14 - الموضوع.

1 - المخاطب: (من يتكلم عبر المستجوبين ؟)

الفئة العمرية أحيانا والإثنية أحيانا أخرى والعقائدية غالبا، وذلك كله بتمثيلية مضمرة.

2 - المخاطب: (لمن يوجه الخطاب؟)

الباحث كمخاطب مباشر، وأحيانا المسؤول عن الاستعمار المحلي، المستقر والقبلي، ثم المسؤول عن الاستعمار الوطني، ثم المسؤول المستعمر. إلا أن هناك مخاطبا

مضمرا وهو السلطة ووراءها المؤسسة وبعدها المتعلم أي متعلم يمكن أن يوصل الرسالة. ويبدو الخطاب أحيانا موجها الى الذات.

3 - سمة المتن: اتخدت الإجابات في غالب الأحيان طابع التمثيلية وقلما نزعت نحو الفردانية إلا في حالات نمطية تحدثنا عنها في سياق المقابلة.

4 - لغة المتن: هي لغة مباشرة، لكنها لم تخل من مداورة وتحايل على المعنى، خصوصا في القضايا السياسية والإثنية.

5 - الأسلوب : غلب على المتن السرد والحكي والتقرير، وذلك لإضفاء الواقعية والفعلية على الخطاب، إلا أن محاولات التبرير والتفسير لم تغب عن النص، الأمر الذي أضفى عليه صبغة توريط الذات والتعبير المعياري عن الإلتزام والتوجه نحو إظهار الإهتمام بما وقع، ذلك كله دون نسيان تمامية وشمولية بارزين مع مباشرة فضائحية أحيانا. وقد تشتم فيه بعض النضالية.

6 - مستوى المتن: تراوح بين القبيلة والوطن والأمة مع تضخيم الأول والثالث.

7 - النسق الاجتماعي: يلقي التمايز الإثني بظلاله على المتن كله وهو الذي يفسر تعقد الدلالة والمعنى، بل وتداخلها وتناقضها حتى الى حدود الإختلاف حول مصطلح الاستعمار. وكذلك أمور مثل إشكالية الميز في التمدرس إلى غير ذالك من القضايا المختلف حولها الى حدود التضاد.

8 - النسق المعرفي : تبقى المرجعية الدينية حاضرة وبعدها العرفية القبلية، وهما العمق المعرفي والثقافي المؤطران للرؤية إلى العالم في الواحة.

9 - الحجاج : يستدل المتن أساسا بسرد الأحداث وتكرارها ورواية الحكايات وتكثيف الدلالات في الأقوال، وهو ما يمكن الإصطلاح عليه بالإستدلال بالرواية.

10 - الإستنساخ: تكرر وتستنسخ الأحداث الملحمية والأساطير والجينالوجيا الى ما لا نهاية.

11 - التناص: شكل من أشكال الإستنساخ لكنه ذو فائدة سوسيولوجية وأنثروبولوجية كبرى حيث تروى حكاية واحدة روايتين أو أكثر.

12 - بياض النص: سكت المستجوب عن أمور مرتبطة بغموض ولبس أو عدم فهم أو عن الطبقية التي يغلفها دائما بالإثنية.

13 - قاموس المتن: برزت بعض الألفاظ الدخيلة إلى اللغة المحلية أثناء الإستجواب. وقد قسمناها الى:

أ- قاموس حربي : الغولة، المهبولة، البرطيزا، الكوم...

ب- قاموس مجالي: الفيلاج، البيرو، البوسطا، السبيطار، الشانطي...

ج - قاموس الشغل: الكورفي، الجورني، لاطاش، السربي، برمسيون، المانضا، البالا، البيش، الستيلو...

د- قاموس المدرسة: لاكلاص، لاكونتين، الدوش، برمسيون،لاريكرياسيون، الخ. إنها المجالات التي مسها التحول لأن استيراد الدال دليل على غياب المدلول.

14 - الموضوع: انشغل المتن بتيمات رئيسية هي : الجهاد وزرع الفيلاج وتهيئته والسلطة ومؤسساتها ووظائف الضباط والقضاء ثم المدرسة والإذلال والتنمية والمعاش والتربية الصحية والأمن والمصنوعات والمقاومة. ولو شئنا تصنيفها حسب الأهمية لقسمناها إلى فئات ثلاث:

أ- الهامة جدا: الجهاد والفلاج والسلطة والمدرسة، وباللغة السوسيولوجية، إشكالية الهوية ونزع المبادرة التاريخية **La dépossession historique** ثم احتلال الأرض أو نزع المبادرة المجالية **La dépossession spatiale**، ثم نزع المبادرةالسياسية **La dépossession politique**، وأخيرا نزع المبادرة المعرفية والثقافية **La dépossession culturelle**.

ب-الضعيفة الأهمية: الإذلال والمعاش والتربية الصحية. إذ مادامت المبادرة منتزعة ومفقودة يتساوى التوجه نحو اليومي.

ج- متوسطة الأهمية: المصنوعات، كإشارة فحسب والأمن والمقاومة. اذ رغم أهمية المقاومة (1953 وما بعد) في إذكاء الحماس والأمل، فهي أقل ملحمية بكثير من الجهاد (بادو وبوكافر). وقلة الحماس تجاه المقاومة يفسر بمزاحمة الأيديولوجيا القبلية للأيديولوجيا الوطنية.

لقد شكل الاستعمار بداية زعزعة القداسة الصوفية، البركة "كقوى خفية حاملة للمنفعة" بتعبير وستر مارك و"مراكز الأمان في العالم الواسع" بلغة بريتشارد، نحو الوطنية كأيديولوجيا فوق قبلية والسنية بعد ذلك فوق وطنية. وهي وقائع تنفلت للنمذجة، فبعض الصوفية اعتنق الخصم اللذوذ، الاستعمار حماية ربما من الوطنية كأديولوجيا بورجوازية ومدنية وبعد ذلك السنية كايديولوجية الأمة. هذا ما لم يرد المتن قوله وقاله، إنها فلتته. أما ما أراد أن يقوله وقاله فهو مكثف في القولة : "نضربك وما نخلي اللي يضربك" والتي تكثف التمثل المحلي للإديولوجيا الكولونيالية كلها.

لقد عمل المشروع الكولونيالي على اجتثاث الذات ومزاحمة الأيدولوجيا القبلية التقليدية، كما زاحمت المدرسة الكولونيالية المعرفة الدينية التقليدية، وزاحم المستشفى العلاج السحري والكرامات، وهذا ما لم يحسن المتن التعبير عنه، وربما هو ما أراد قوله ولم يقله، وسكت المتن عن مزاحمة الأيديولوجيا الوطنية للقبيلة، والسكوت هنا نوع من المقاومة. في نهاية الاستعمار استدعى أحد المسؤولين الكولونياليين أحد متعاونيه وقال له: نحن سنرحل لا محالة، لكنه سيحل محلنا عنصر، "كنس" لن تتفاهموا معه البتة.

تلك هي التيمات التي طغت على التمثل المحلي للتحول الكولونيالي، وتلك هي التقنيات المستغلة من أجل فهم ما جرى. جمع متن شفهي من مقابلات وضحنا السياق الذي فرضها منهجيا ثم محاولة تأويل ذلك المتن واستخلاص سلم الإهتمامات والتوجهات.

لقد طغى البعد الهوياتي على التمثل المحلي.

كما طغى التكرار على المتن كله، وهو رغم دلالة الأهمية، ربيب الموت في التحليل النفسي.

II - السجال الشعري

نحن هنا بصدد محاولة تجريد الحدث الكولونيالي والتفكير في كيفية التعامل معه. وقد إتخذ الحوار شكلا سجاليا بين من يدعو إلى الإستسلام نظرا للطبيعة العنيفة والقوية للمستعمر، والمتمثل على شكل نار تارة، وطوفان مرة أخرى، أو حتى طريقا محفوفة بالمخاطر والمهالك والحفر، أو على شكل هم ثقيل، ومعارضة الجائحة هذه لا تؤدي سوى إلى الهلاك والتورط في مشاكل يصعب حلها، بل لاتعدو المقاومة في هذه الحالة سوى عصيانا وتمردا على المشيئة الإلهية.

في حين يرى الموقف المضاد ضرورة المقاومة أو مساعدة المقاومين على الأقل، وذلك اعتمادا على وضع الثقة في القدر الذي لا يمكن أن يكون ظالما، بل وبالإيمان بالقدر يمكن حتى وإن ركبنا المخاطر أن ينجينا منها الله.

أما الشاعران فتتفق الذائقة المحلية على أنهما من كبار شعراء غريس أو هما الكبيران على الإطلاق.

1 – المتن:

أعستا:

أدّاي نينّي تالات نعايد إسونيف   أور أغ-حاصرن إضارن س أدغارنّاغ.

علينا تجنب الحفر وأن لا نمشي إلا في الطرق السالكة ما لم يجبرنا أحد على ذلك.

عمرو:

أسانيف إوعر إ يان بنادم أماحول   مقّار ت-إونّا هان إفادّن أو رلّين.

حتى المسالك الوطئة تعتبر صعبة بالنسبة لغير القوي.

أعستا :

أدّاي نينّي أونّا يلاّن ك أونمري   نعايد إ وبريد أد أور أغ-د-إيغر كا.

لا يجب مساعدة من هم في ورطة، لابد من القفول من الطريق الذي يسلكونه حتى لا يستنجدون بنا.

عمرو :

بنادم إ-يغران إك لاّن ك أوثمري   نعاون-أسن-ت أر أينّا إكا ربّي.

يجب أن نساعد كل مستغيث، أما ما قد يحصل بعد ذلك فمتروك أمره لله.

أعستا :

أوا كّدغ أ-تعاوند إ كا يلاّن ك أوثمري   إسرس-أون تاسيم تبابّم أزازا.

أخاف أن تحاول نجدة من ثقل حمله فيورطك بتحميله لك.

عمرو :

مك إيمّوت ك لامين بنادم إينيّان   دا ياس ياكّ لجيد إغرمان ك يتّرباح.

إن مات الذي ينوي الخير غدرا، يهبه الله قصورا في الجنة.

أعستا :

بنادم إيضرن أسيف أدّاك دي-يدّا   مك تي-ينغا ربّي ديكس مونّ ديمعصان.

من يرمي بنفسه إلى التهلكة، اعتبر عند الله من العصاة.

عمرو :

أونّا يرا ربّي أتّ- إحاسب إس روان مقّار د-إيضر س أسيف إنّال-د أساكا.

من يكتب عليه الله السعادة حتى وإن طرق المهالك ينجيه.

أعستا :

إنّا-ك مولانا تّاوي حيدر أ ياضار   إدّ إيس ك-أوزنغ أتّ-كد تازرا س أفا.

يأمرنا الله بالحذر والإحتياط وأن لا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة.

عمرو:

أغ-أك لقلم أ يان بنادم أضمّاع   أورو-د غيفك تيرّا أور إ-يكي ربّي.

هل يمكن للمرء أن يغير قدره وأن يكتب على نفسه ما لم يكتب عليه ؟

أعستا:

رّوح غور لجيد أوكلن أر دّ-ياوض واسّ ماكا تسبّبد-أس إزرب أدّ-ياغ أكال.

رغم كون الآجال محتومة فقد يسبب المرء لنفسه الهلاك.

عمرو:

رّوح غور لملك بنادم أسكلو أور ت-إتّـبّـي خس إك إتّر لادن إ ربّي.

الروح شجرة بيد ملك الموت، لاتنقطع إلا بأمر الله.

2 - السياق

نحن أمام موضوع سجالي بامتياز، اختلاف حول المسلكية رغم المرجعية الميتافيزيقية الموحدة، رغم أن الداعية إلى المقاومة أكثر استغلالا لدلالة القدر على عكس الداعية إلى الإستسلام الذاكر لفعل الإنسان وضرورة ربط الأسباب بالمسببات. من هنا نفهم البعد الميتافيزيقي للمقاومة وقوته المستغرقة للطرفين رغم تناقضهما، كما لنا أن نسجل هنا، سوسيولوجيا، كون المنبت الإثني للشاعرين جد مختلف، فالداعية إلى المقاومة والتحرر ينتمي مورفولوجيا إلى القبيلة واللف ومن هنا خلفيته الحربية المغلفة بالقدر لضم الآخر، أما المهادن فينتمي إلى مورفولوجيا مستقرين تحطمت عصبتهم منذ أجيال عديدة واتخذت التجارة أسلوب معاش. لا نريد هنا الربط السببي وإنما نبغي تسجيل الترابط والتعالق.

ورغم الإختلاف الطاغي على السجال فهو منبثق من ثقافة واحدة وهي ثقافة القدر، ومن ثمة عدم البحث في السياق أو المسؤولية أو الإختلاف الثقافي والحضاري بين المستعمر والمستعمر,

بتعبير آخر لم يكن هناك وعي تاريخي بالحدث، وهي كلها أمور غائبة في الثقافة المحلية.

إن ما حدث قد حدث وهو ابتلاء وهو شعور وليس وعيا بخلل ما عميق في الذات. تلك الذات التي أدارت ظهرها للآخر منذ زمن بعيد ولا تحاول فهمه، ولا حتى استحضاره كخصم واقعي في معادلة الأزمة. إن ما حصل شأن داخلي، بل وشيء عادي وابتلاء واختبار وفتنة ومحنة.

III- من ذكريات سجين مكافح[1]

لن يجدي التعامل بتقنية تحليل الخطاب مع متن هذا النص خطيا، وذلك لسبب منهجي بسيط وواضح أملته طبيعة العمل وهو عدم جدوى البحث في الوحدات الدلالية، إحصاؤها وتكرارها، إذ تطغى دلالة واحدة على الكتاب كله وهي التنكيل وليس سوى التنكيل، الذي مارسته السلطات الاستعمارية على جسد وروح المسجونين. وبذلك حاولنا استخلاص المنهجية من المتن نفسه استقرائيا على أساس إنشاء شبكة مرنة وملائمة للتأويل لم تراع سوى استحضار فروض الإشكالية التي قادت البحث كله من جهة، والرغبة في الإحاطة وعمق الاستثمار السوسيولوجي من جهة ثانية، وذلك كله انطلاقا من اقتناع أولي بجدوى فحص المتن كشهادة ميزها الوعي بالدور التاريخي الذي أنيط بالحركة الوطنية ضدا على الفعل التلقائي القبلي، ومن ثمة ربط الخاص بالعام ومقارعة التمثل الكولونيالي، ليس بالتمثل القبلي المبني على رد الفعل المستنفر فحسب، بل بمشروع حضاري مضاد. إنه فحص وجه آخر للمقاومة غير التلقائية، بل المستندة على أشكال من الوعي، ليس كمّا فحسب بل وكيفا، وكل ذلك بشكل معقد ومتداخل لم ترد ولم تستطع السلطات الكولونيالبة فهمه وهضمه واستساغته.

انطلاقا مما سبق اعتمدنا العناصر التأويلية التالية : 1 - سياق الكتابة. 2 - سياق الأحداث. 3 - المرجعية. 4 - بياض النص. 5 - نتائج.

1 - سياق الكتابة. من يكتب ؟

أ - التعريف بالكتاب وهدف الكتابة.

استهل الكاتب مؤلفه بتعريفه : «هي محاولة لوصف القمع الوحشي الفظيع الذي لقيته طائفة من المكافحين الوطنيين الفاسيين على يد جيش الاحتلال الفرنسي في مركز (كولميا) بالجنوب المغربي.

فمن لم يحيى بعد الموت يوما   فإنا بعدما متنا حيينا.

1- الكتاني، محمد إبراهيم.- **من ذكريات سجين مكافح في عهد الهماية الفرنسية البغيض بالمغرب أو أيام كولميا**، دار المغرب، الرباط، 1977.

(الحافظ أبو الفرج الجوزي).» (ص، 2)

نستشف منذ التعريف الموقف الصريح والواعي من الاستعمار «الوحشي الفظيع» كطرف غالب فاعل، سجان وجلاد يمارس عنفه على طرف آخر مفعول به، ليس سلبا كما سنرى، لكنه المغلوب المعاني بوعي كفاحي وطني كبير.

وإلى جانب الطرفين الرئيسيين يوجد طرف ثالث لم يكن محايدا، إنه مكان الاعتقال وساكنته. ويختم التعريف ببيت شعري ليحمل التجربة كلها بعدها الإنساني الاستشهادي الأنطولوجي، ومن ثمة الطابع المأساوي للفاجعة التي حاول التأريخ لها. إنها شهادة على مرحلة سوداء، ولا مواربة عند صاحب الشهادة في وصفها كذلك نظرا لفداحة المعاناة التي مست عمق الذات الجسدية والروحية للوطنيين.

ويلتجئ الكاتب، ودائما في إطار التعريف بالكتاب، إلى ما أسماه بقصة الكتاب أو قصصها، وهي أحداث متداخلة تشمل قصة الحوادث نفسها كمضمون للكتاب، ستة وخمسون يوما في كولميمة، إلى جانب قصة أحداث كتابتها وإلحاح المؤرخ ابن زيدان على ضرورة كتابتها، «إذ من الخيانة التاريخية إهمال تسجيلها»، (ص7). أما الكيفية التي كتبت بها الذكريات فهي استذكار إرادي وواع مع الإعتماد على جدول سجل بالسجن أثناء الاعتقال.

ورغم كون الجدول شكل مشكلة حقيقية في إخفائه، فقد كانت له فائدة كبرى في عدم نسيان التفاصيل الدقيقة التي ملأت صفحات الكتاب كله، والتي كانت ستضيع لولا التسجيل الأولي. كما يدخل ضمن التعريف بالكتاب ذكر علال الفاسي له في كتابه الحركات الإستقلالية في المغرب العربي وهو القائل: «أني ما أسفت على شيء تركته في المغرب مثلما أسفت على أني لم أصحب معي (ذكرياتك) لطبعها في المشرق واستغلالها في الدعاية ضد الحماية الفرنسية.»، (ص10). كما أنها وردت في كتاب عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى تحت إسم الأوصاف البديعة للأفعال الفظيعة، (ص11). كما أن من الذين ألفوا عليها، سيدي عبد العزيز الوزاني، وكذلك المختار السوسي الذي حاول نشرها، كما اهتم بها كاتب أمريكي حاول ترجمتها بل وإعدادها لفيلم سينمائي، كما أن عبد الكريم غلاب اعتمد عليها في كتابه الحركة الوطنية بالمغرب، (ص12). إن ذكر

المؤلف لانشغال كل هؤلاء الأعلام بذكرياته تأكيد على أهميتها.

بعد التعريف وظروف الكتابة يأتي الإهداء، وهو وإن كان بديهيا في شكله فهو ذو حمولة سوسيولوجية لا تنازع، حمولة تجعلنا أمام فئة جديدة من المفحوصين وأمام متن جديد لا يمكن وصفه إلا بالوعي بالمهمة التاريخية والتجند لها. يقول في الإهداء :»إلى جميع المكافحين في سبيل دينهم ووطنهم وأمتهم الذين أنعم الله عليهم بالإبتلاء الشديد بالسجن والتعذيب بالضرب والجوع والحرمان والإهانة والسباب وفراق الأهل والأولاد والكتب والصحف، وإلى زوجاتهم وأولادهم الذين قاسموهم هذا الإبتلاء الشديد أهدي هذا الكتاب.»، (ص6).

ويعتبر سياق الكتابة ومحاولة التعريف بالكتاب مناسبة مضمرة للتعريف بالكاتب.

ب - التعريف بالكاتب

إن أول ما يريد أن يعرف به الكاتب نفسه موقفه من الاستعمار، ذلك الموقف الذي لا يترك أية مناسبة للإفصاح عنه وتكراره. كما أن بعد الوعي بالقضية والإعلان به ظاهرة لا يمكن إلا أن ينتبه إليها أي قارئ مهما كان متسرعا أو غير مسلح، ذلك الوعي المركب من مستويات عدة والتي يمكن إجمالها في: الوعي التاريخي العام، والوعي الديني، والوعي الوطني، ثم الوعي بالأمة. وكذلك الشعور بالنفس والذات وعزتها والوعي بكرامتها. أخيرا يفصح الكاتب عن وعي آخر راق يدل على مستوى رفيع من الحضارة، إنه الوعي الأدبي والحقوقي «فراق الكتب والصحف». ثم يختم جميع أشكال الوعي بوعي سياسي استراتيجي وتاكتيكي غير معهود «تحطيم أعصاب النصارى»، (ص15). وفي سياق التعريف بالذات لايفوت المؤلف أن ينبه إلى العداء الشخصي المتوارث للاستعمار، (الكاتب عدو لذوذ للحماية، مهيج كبير، الوالد الذي قاطع الحاكمين، والعم صاحب النصيحة للسلطان عبد الحفيظ وهجرته إلى المدينة وصلته بالمجاهد محمد الشريف السنوسي وتتلمذه عن المجاهد ابن عبد الكريم الخطابي، وجده شيخ الجماعة بالمغرب، وجد والده الذي جاهد ضد الأسبان في تطوان وابن عمه رئيس الزاوية، (ص ص8-9). كما أن الكاتب سجن بأغبالونكردوس (وهو المعتقل الشهير

لأقطاب الوطنية، محمد الفاسي والمختار السوسي والمهدي بن بركة. وهو معتقل لا يبعد كثيرا عن غريس.)

2 - سياق الأحداث، عن أي شيء يكتب؟

كما كان الوعي شديدا بالدور التاريخي للمقاومة الوطنية، كان الوعي أشد وأوضح بفهم المشروع الكولونيالي وأهدافه:»إذلال الشعب المغربي واستعباده والقضاء على كيانه ومسخ شخصيته ومحو مقوماته التي هي: دينه الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقا وثقافة ولغة وحضارة ودولة ورسالة في الحياة.»، (ص ص13-14). إن أهداف الاستعمار إذا هي، الاذلال والاستعباد والقضاء على الكيان ومسخ الشخصية ومحو المقومات.

وهكذا، مرة أخرى، نلاحظ الدقة والشمول في فهم المشروع الاستعماري كله، تلك الدقة التي تجاوزت فهم النية والهدف إلى فهم وفضح الآليات: «كونوا جهازا للعمل لتحقيق هذه الأهداف، الوزراء والكتاب والتراجمة والبشوات والقواد والقضاة والخلفاء والشيوخ والمقدمين والشرطة والدرك والجواسيس وبعض الأعيان والوجهاء وبعض رؤساء الزوايا ونحوهم ممن قبلوا الإنسلاخ عن أمتهم.» (ص14)

بعد تحديد أهداف المشروع الكولونيالي وذكر جهازه للعمل - مؤسساته - ينطلق إلى قلب الأحداث وقلب العمل كله، أشكال وأنواع الإيذاء والعسف وهي :

- العنف الجسدي بجميع أنواعه وتلويناته، من الاسكان في الإصطبلات حتى الضرب، وصولا إلى المنع من الماء شربا ونظافة.

- العنف النفسي ابتداء بالسب والقذف بالكلام الفاحش حتى التزام تحية العلم الفرنسي، مرورا بمنع الكلام والوضوء والصلاة والغسل...

وتلخص كلمة مكثفة كل أشكال المعاناة كما عبر عنها الكاتب نفسه،»خذه بالموت حتى ينسى الحمى»، (ص14).

وقد قابل كل هذا العسف الشديد إلتزام وإصرار على أداء المناسك (صلاة، صوم...) ولو في أحلك الأوقات وأعصبها، وذلك استماتة وتشبثا بالهوية ومقوماتها الأساسية، كما استطاع الضحايا خلق آليات للتنفيس والهروب من الجحيم بالصلاة نفسها وبعطف بعض الفرنسيين أنفسهم، وكذلك عطف بعض «القوم» وعطف الشعب، الساكنة المحلية وعامة الأطفال والنساء خاصة. كما كانت النكتة متنفسا قويا استطاع المحبوسون تصعيد حالهم بها إلى مستوى الفكاهة والتفكه ولو على الذات.

بكل ذلك لم يجد الجلاد ضحية مستسلمة وسلبية، بل كانت ردود أفعال الوطنيين في مستوى أفعال المستعمر، وكان سلاح السجناء الإيمان والثقة في نبل الشعب، وكانت الآليات والسلاح، «التحدي والعمل على تحطيم أعصاب المستعمر حتى يفقد صوابه ويندفع للفتك بهم وبذلك تنكشف حقيقته للعيان ويتكاثر أعداؤه والناقمون عليه.»، (ص15)، الأمر الذي يوضح الوعي الإستراتيجي للجماعة.

وقد سبق كل ذلك أفعال سياسية منظمة مثل : «تأسيس تشكيلات سرية وتجمعات الإحتجاج وتوقيع عرائض وتحرير المنشورات وتوزيعها وتنظيم المظاهرات وحوادث اللطيف وحوادث محاربة التدخين والخمر والمطالبة بالصحافة العربية وبحرية تأسيس الأحزاب والمطالبة بعد كل ذلك بالإستقلال»، (ص44)، مع التضامن مع الشعب التونسي، (ص52)، ثم ثورة الملك والشعب، (ص53)، وقيام حركة المقاومة وحرب التحرير، (ص ص 15-16).

3 - مرجعية المؤلف

لو شئنا أن نضع سلما لتسلسل الأهمية لمرجعية الكاتب، لكانت المرجعية الدينية أقواها، وذلك باعتماد القرآن عينا يغرف من معينها أفكاره وأمل مشروعه بل وعزاءه ومعنى صبره واستمراره، ذلك كله في سبيل الله، مع مسحة صوفية تخترق العمل كله. بعد الدين تأتي الوطنية في الدرجة الثانية، دون نسيان العرف كمرجعية ثالثة. مرجعية ثلاثية إذا هي الدين والوطن والعرف.

4 - حجاج النص

غلب على المذكرات أسلوب السرد والوصف وحكاية الأحداث، إلا أنه ورغم كل ذلك فقد حاول الكاتب إبداء بعض الملاحظات واقتراح بعض التصنيفات وبعض الإجتهادات القليلة في الفهم والتأويل. فقد حاول مثلا أن يميز بين الوطنيين الحقيقيين وغيرهم من المسجونين ممن يحسب على الوطن، بل والذين فيهم من تشار إليه أصابع الإتهام، (ص40). أما الوطنيون الحقيقيون فهم من علماء فاس وقدماء طلبتها وطلبتها وبعض التجار والصناع وأغلبهم أميون، (ص40)، كما قسم المسجونين إلى ثلاثة أصناف: قدماء التلاميذ وأصحاب السنة والسنتين وأخيرا أصحاب ستة أشهر. كما قسم الجلادين أيضا إلى أقسام، إذ منهم من يلتفت إلى بعض معاناتهم، إلا أن أغلبهم لا يمكن أن ينتبه إلى هؤلاء المترفين الذين «أحضروا معهم الكتب والدفاتر والأقلام ومواس الحلاقة وسبحات وصابون الحلاقة ومعجون الأسنان والفراشى...»، (ص36)، في حين أن جل القوميين «الكوم» بدوا أجلافا -بحد تعبيره - أمازيغ غالبا وبعض عرب جبالة، لكن دونما أن يحمل لذلك، ربما، أية مسحة عنصرية.

5 - بياض النص

من الأشياء المثيرة في الكتاب، اقتصاره الشديد على أحداث أفعال الغالب الجلاد وردود أفعال المغلوب الضحية، وأشكال وعيها وآليات المقاومة لديها، دون ذكر لما يحيط كل ذلك من أحداث محليا ووطنيا، سواء التي سبقت أو تلت الإعتقال. فهو لا يذكر مثلا كل أشكال الجهاد الأخرى التي سبقت الحركة الوطنية، في المنطقة على الأقل-بادو وبوغافر- ولم يذكر غير ثورة ابن عبد الكريم، ويرجع السكوت ذلك، ربما إلى العزلة التامة التي عانى منها المعتقلون بسجن كولميمة، حيث لم تكن تصلهم أي أخبار ولم تكن لهم أية علاقة بالجرائد وغيرها. إلا أن السكوت المثير فعلا هو عن المقاوم المحلي الكبير زايد أحماد والذي عاصرت بطولاته الجريئة أحداث معتقلي كولميمة.

نتائج

يفيد فحص المتن أعلاه مجموعة من الملاحظات مقارنة مع المتن الشفهي ذي المرجعية الدينية والعرفية القبلية المحايثة، والمتن الكولونيالي بمرجعيته الإستراتيجية السياسية المؤطرة للفعل الكولونيالي نفسه.

يفصح المتن الوطني عن مرجعية واعية حاضرة وبروز لمجابهة الإستراتيجية الاستعمارية بأخرى نقيضة عقائدية ووطنية. إن التمثل الذي كان مع المحلي ماهويا-ميتافيزيقيا- وفق الجهاد و«الفزعة»[1] و«عوام» ضد الكولونيالي السياسوي -التوطيني-المجالي، سيأتي مع الوطني دينيا ليلتقي مع المحلي على مستوى الأمة ودار الإسلام، لكن بوعي أشد وأحد على مستوى التوجه الوطني وهي إضافة غير معهودة بالنسبة للتوجه القبلي.

وتبقى في الأخير ملاحظة لابد من إدراجها رغم بساطتها وهي المستوى العالم للمعرفة الدينية للوطنيين والذي يفضح التمثل التبسيطي الذي شكلته السوسيولوجيا الكولونيالية حول الإسلام المغربي، الإسلام الذي حاولت التقارير الإثنوغرافية تقديمه على شكل شبه بدائي.

1- بمعنى التعبئة العامة والشاملة والعفوية لمحاربة المستعمر وفق مفهوم الجهاد...

IV- صورة المستعمر في رواية مجرة المجد[1]

بعد استغلال تقنية الملاحظة فيما هو قابل لها (زرع الفيلاج وانتظامه عبر المجال..) وبعد استثمار المقابلة في جمع تمثلات الساكنة حول التحول-التحويل الكولونياليين لمجتمع واحة غريس، واستنطاق متنها بفحصه بالآليات التأويلية لتحليل المضمون، وبعد الاشتغال بنفس الطريقة على متن مغاير ومتنوع (وثائق أرشيفات الشؤون الأهلية، مجمع أبحاث ودراسات مونوغرافية، سيرة سجين مكافح..).

بعد كل ذلك نريد أن ندقق أكثر سيرا على نفس النهج الذي هو الاستنطاق والقراءة والتأويل، ضدا على أي لي لعنق التاريخ بنظرية فوقية أو تصور إسقاطي، نريد هذه المرة وبتحديد أكثر وتعيين أشد اختيارا لفحص صورة المستعمر، بملامحها الفيزيقية والمعنوية في عمل روائي محلي تناول الموضوع بقدر مقبول من الإحاطة وبقصدية ملحوظة، وإذا كنا نعلم منهجيا العلاقة المتداخلة بين الصورة والتمثل وبعدم إمكانية الفصل بينهما كان لزاما علينا أن نوضح لماذا الصورة؟

لقد اخترنا الصورة لاعتبارات استقرائية أملتها طبيعة المتن، إذ نحن مع الرواية بصدد عمل أكثر تعقدا من التمثلات الشفهية من جهة، ولحضور قدر كبير من القصدية والإرادوية والوعي المعلن والمضمر تورط العمل في هموم ورهانات حاضرة وربما مستقبلية، ومن ثمة اقترابنا من التصورات الإدراكية والفهم والوضوح النسبي للرؤية أكثر من التمثلات شبه اللاواعية بالنسبة للسرد الشفوي على الأقل.

تبقى الصورة منهجيا، أكثر تجسيدا وتشخيصا وإجرائية وقابلية للحكم والقياس، كما أنها وبكيفية بناءها وتشكيلها يمكن أن تساعدنا على القبض على المواقف والتوجهات ولو ببعض التعميم، نظرا للطبيعة التاريخية لما نحن بصدده وذلك كبديل عن سلم دقيق للتوجهات الذي قد تفرضه بحوث أكثر راهنية واستنطاقية، بحثا عن المواقف الملائمة الدقيقة وليس عن التمثلات والتصورات وهو مالا نقصده في عملنا.

1- Moha Ou Ali Khettouch. *La Constellation de la Gloire*. OKAD. 1997

لا نريد بالصورة هنا سوى بعض حصر التمثل بشكل أكثر إجرائية، إذ الصورة محاولة نقل الواقع وترتيبه ودمجه وإضفاء الذات الاجتماعية النفسية عليه تذكرا واعيا وباللاوعي وقمع المكبوت والمسكوت عنه غير المرغوب فيه، وإبراز المستحسن والمأمول. ويلعب الإيحاء دورا أساسيا في كل تصور وكل تمثل. كما أنها وإن كانت تريد الإبراز بالموضوع والأرضية، فهي أيضا مجال خصب للبياض والإخفاء والتحايل، ومن ثمة بعدها عن المفهوم واقترابها الشديد من الإستكشاف وعلاقتها بالمشاعر والأراء والتوجهات والمواقف، هي تمثل إذا لكنه شبه واع. «إن الصورة ليست شيئا مطابقا للموضوع في العالم الخارجي، بقدر ماهي تركيب فعال تقوم به ذهنية الفرد البشري.» يرى بياجي[1].

إن الطابع نصف حسي[2] للصورة جد مساعد على الفضح واستكناه سلوك الحاضر وتوجه المستقبل ومن ثمة إمكانية قياس أثرها وفق:

- درجة التصوير أو القدرة على تمثل الواقع أو درجة التمثل مع الموضوع المصور وهو ما نصطلح عليه بمدى المطابقة والإقتراب أو البعد من الواقع.

- التعقد والبساطة.

- الحجم أو القدرة على التأثير والتوجيه والإستقطاب.

- الكثافة والتخلخل والقوة والضعف (معيار التذكر والنسيان).

- الجمالية والقدرة على الامتاع (التجانس أو اللاتجانس والتنافر).

- السياق الزمني والتاريخي، أزمنة الصورة (زمن المصور، زمن الأحداث والشخوص، زمن المتلقي..)[3].

تلك هي المعايير والعوامل المسوغة في اختيارنا للصورة كأداة تأويلية مرنة يمكن أن تساعدنا على قبض تصور الفئات العالمة الواحية للفعل الكولونيالي.

1- أنظر، الدكتور أوزي، أحمد.- **الطفل والمجتمع**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص، 64.

2- نفس المرجع، نفس الصفحة.

3- للإستزادة أنظر نفس المرجع.

1 - وصف المتن

وصف المؤلف نوع عمله رواية رغم عدم توفره على شروط السرد الروائي: غياب الحكاية، غياب الأحداث ذات نسيج، غياب العقدة البؤرية وعنصر التشويق، إلخ. كما أن إقحامه بعض العناصر غير السردية: نصوص (الصفحة من 1 إلى 3)، مجمع أعراف (ثمانية فصول، ص ص 29 - 78، 49 صفحة)، إضافة إلى الوصف المسهب والمطنب لرحلة الشخصية الرئيسية، «إتري»، إلى الحج (ص ص 181 - 249، 68 صفحة)، كل ذلك أفقد العمل كل طموح في أن يعتبر رواية.

هذا من حيث بناء العمل، أما من حيث أسلوبه فقد طغى عليه التكلف والبحث عن الألفاظ الرنانة، الأمر الذي يبعدنا مرة أخرى عن الحد الأدنى من العفوية الإبداعية التي يجب أن يتوفر عليها كل عمل أدبي أو يطمح إلى أن يكون كذلك.

أما فيما يخص الشخصيات، فليس هناك في حقيقة الأمر سوى شخصية واحدة، إتري، النجم، والذي يتمتع بكل التقريظ والمدح، ولكل الآخرين التبعية والثانوية في أحسن الأحوال، والسلبية والسوقية في أسوئها، حتى ليبدو العمل كله سيرة في مناقب شخص فوق التاريخ، له كل الصفات الحميدة والإيجابية وللآخرين غير ذلك. ومن خلال إتري يرسل الكاتب خطابات وشعارات عن مجد الأمازيغ، وذلك بلغة تتخللها دلالات إثنوغرافية (عروق، أصالة، هوية، المطلق، الأبدية، تناسخ، عبقرية، تماهي، القيادة والهداية، الحقيقة الخالصة، الحرية...) «ولا يجب فهم إلا هذا»، (ص5)، يقول المؤلف. دون نسيان طبعا ذكر بعض الاختلاف والتسامح، (ص ص6-7)، لكن كهامش جد ضئيل بالنسبة لألفاظ المجد..

أما إذا رجعنا إلى مضمون «الرواية» فهي خطاب في التباهي بعزة ومجد الأب- النجم- القائد الزعيم، إتري، وذلك بشكل جد ملفت، إن على المستوى المادي، جسدا وملكا وأصلا وعرقا، وإن على المستوى المعنوي الرمزي، معرفة بالدين والأعراف خصوصا، وثقافة، احترام التقاليد والطقوس، وأخلاقا، في حفظ العهد والذمة والأمانة والحماية والإغاثة والنجدة والكرم وتجربة في الحياة، الرحلة إلى الحج والوقوف بالقاهرة في زمن لم يكن يتجاوز فيه الغريسي المتوسط فاس أو الأطلس أو تافيلالت.

ويحيط الكاتب إتري بمجموعة من الشخوص الباهتة الملامح، النساء -باستثناء نسبي للأم- والأطفال والخدم وعامة القبيلة المنصاعة إليه انصياعا تاما، تستشيره وتهتدي به في الصغيرة والكبيرة. وهو لا ينور العالم القبلي بأعرافه فحسب، بل هو مدونها وجامعها وحاميها وضامنها. وقد أطنب الكاتب في القيمة الدينية للزعيم وللواحيين عموما، ووقف عند المدرسة القرآنية ودورها التربوي التنشيئ وحجم حضور الزاوية. وهي كلها معلومات ذات قيمة سوسيولوجية لو ذهب إليها رأسا دون تصنع وضعها في قالب روائي.

يقدم العمل نفسه، من ناحية الجنس الأدبي، على أنه رواية، ولكنه ليس كذلك بحكم عدم توفر الشروط الأدبية كما أسلق الذكر، كما أنه اقتنص بعض الأدوات الإثنوغرافية : مجمعات أعراف، الملاحظة، الملاحظة بالمشاركة، المقابلة، الشفهية. إلا أن الرغبة في إضفاء الجمالية المفتعلة جملا وتركيبا ومعجما، أفقد المجهود قيمته فتبدى نصا حشويا، الأمر الذي لم يترك الفرصة لشعرية الرواية أو لإخراج عقلاني، والذان سنجدهما حاضرين ومجتمعين في العمل-الرواية- الآخر الذي سنفحصه عما قريب.

إن إيراد هذه الحيثيات ليس غرضه المنهجي سوى فهم أكثر لعدم مطابقة صورة المستعمر في العمل كله وهو ما يهمنا هنا بالأساس.

2 - صورة المستعمر في المتن

أ - سياقها

يورد الكاتب شخص ضابط الشؤون الأهلية في المحطات الأساسية التالية : في الفصل الثاني المخصص لانتخاب إتري قائدا على غريس والواحات المجاورة، وأثناء نشوب الحرب العالمية الثانية، ودعوة الضابط إتري إلى المساهمة في هذه الحرب هو و«رعيته» إلى جانب صفوف فرنسا ضد ألمانيا، ثم انتظار الضابط لجواب إتري والمفارقات التي حامت حول ذلك وأثناء الجواب[1].

1- يعفينا تركيز السياقات عن ذكر الصفحات.

لنفحص السياقات.

في الفصل الذي خصصه الكاتب لانتخاب إتري أمغار أوفلا لغريس والواحات المجاورة، يبرر شرعية المرشح ومشروعية توليه ذلك المنصب بعلمه الغزير والدقيق بالأعراف بل وتجاوزه ذلك إلى محاولة تدوينها ونقلها من الأمازيغية إلى العربية، حتى أصبح إتري ضروريا لتصفية كل مشكل اجتماعي في الواحة، (ص20).

ولحسن حظ الجميع استطاع إتري الوصول إلى الكمال، (ص20) على حد تعبير الكاتب، بكل ذلك عزم الأعيان على تنصيبه زعيما للقبيلة، «لكي يجلس على كرسي أسلافه»، (ص20)، رغم تواجد بعض العناصر المعارضة لذلك والتي يجب أن تخضع للأغلبية. أما الدسائس التي كانت تحاك ضده لدى ضباط الشؤون الأهلية فقد استندت على الماضي الوطني المجيد لأسلافه ومشاركتهم «النشيطة جدا» في معركة صاغرو.

هذا هو إتري وهذه مناقبه فما هي صورة نده، ضابط الشؤون الأهلية ؟

انقسم ضباط الشؤون الأهلية بصدد انتخاب إتري قائدا أعلى على غريس والواحات إلى قسمين : قائد مركز كولميمة، «مثقف ومنفتح على الأفكار الجديدة للجبهة الشعبية في فرنسا، والذي اقتنع بكون إتري وحده القادر، ليس على إدارة شؤون القبيلة فحسب، بل ضرورة اعتباره المحاور المقتدر والمدافع النزيه عن قدر بلاده...»، (ص21)، أما قائد إقليم قصر السوق فقد «كان يساند خصوم إتري الذين لا يشكلون سوى الأقلية.»، (ص2).

وطال الصراع بين القائدين المحلي والإقليمي حول تعيين إتري، وحتى يتم التأثير على الضابط الإقليمي اهتدى خصوم إتري إلى إهدائه امرأة ماجنة، لكن قائد المركز لم ييأس وطلب قائد جهة مكناس حكما في القضية، واقترح القائد الجهوي الإقتراع العام حلا للنزاع. حزن القائد الإقليمي وسر المحلي بالأمر، ولم تأت دسائس الأول أكلها أمام «حيوية الثاني ورقته واستراتيجيته السياسية والتي وظفها في تنظيم الإنتخاب.»، (ص22)، ومن أجل التأثير، مرة أخرى، على السلطات الاستعمارية عمد خصوم إتري إلى الإسرار لها بأمر كون أب إتري كان من حماة زايد أحماد وعلى أنه كان يأويه سرا بل

ويزوده بالسلاح والمؤن. «إلا أن إصرار القائد المحلي لا يتزعزع وهو المتفهم لقضية زايد أحماد وملحمته التي تنتمي إلى التاريخ المجيد للمقاومة وأن معاونيه لا يمكن نعتهم إلا بالوطنية الصادقة، هو الذي كان أبوه مقاتلا في الحرب العالمية الأولى، وبذلك فهو ليس بحاجة إلى من يعلمه قياس الوطنية والمقاومة ضد الإحتلال والقمع...»، (ص22)، ومرت الإنتخابات في نزاهة تامة رغم التدخلات غير النظيفة لخصوم إتري من أجل استمالة الناخبين». «الكلاب تنبح والقافلة تسير». وكانت النتيجة كما كان الأمر منتظرا، 95 في المائة من الأصوات لإتري.

«امتقع وجه الكولونيل، قائد الإقليم، دخن سيجارة بعد أخرى وكاد أن يفقد اتزانه لو لم يخرج من القاعة»... «ودخل الناس في احتفال عظيم، وبذلك سيستمر التقليد، ويحافظ على «تموزغا»، «وبذلك لا تموت أشجار لوز الأبدية»، «وكذلك العرق الكبير»، (ص25).

«وحتى تتأكد مشروعية وشرعية إتري قائدا أعلى، شكل انتخاب آخر، غير مباشر هذه المرة، على مستوى الجماعات القضائية «أيت المجلس» وتم التعيين بالإجماع»، (ص27). «واعترف له ضابط الشؤون الأهلية بالحكمة والسلطة والعلم والعبقرية التي لامثيل لها»، (ص27).

ذلك هو السياق الأول، أما السياق الثاني فقد جاء بعد نهاية الفصل الرابع والذي تشكل على شكل حوار. يدعو إتري أحد أعوانه للجلوس معه حول كأس شاي، بعد حوار مطول حول الحرب العالمية الثانية.

- «لا...لا...لا... إنها الحرب... قد اندلعت، قضي على فرنسا، إن القبطان يدعوك إلى الشؤون الأهلية في الحين.»

- «سنشرب كأس شاي قبل كل شيء، يرد إتري هادئا لا يزعجه شيء، يمكن للقبطان أن ينتظر.»، (ص92).

«بعد ارتشاف ثلاثة كؤوس من الشاي... يطلب إتري حصانه الأبيض، وتكلف بذلك امبارك رئيس الخدم كما هو معتاد.»، (ص92).

«بدأ القبطان لاندي يفقد صوابه، وبنرفزة شديدة أخذ يذرع مكتبه الكبير وهو في قمة الإنزعاج، كم كان مرهقا.»

- «ماذا عساه يفعل الآن ؟»

«استسلم وهو الفاقد لكل أسلحته.»

«يخرج لحظة بعد أخرى ليسأل مخزنيه أعياش هل وصل إتري؟».

«أصبح ضابطنا المتوتر في ذروة الحنق. إن التوتر ينهش أحشاءه.»

«وصل إتري مؤخرا، نزل بهدوء وبطء من جواده وبكل أناقة أودع الفرس أعياش ليعتني به.»

«فتح القبطان بنفسه الباب، باردا وساخرا ودعا إتري إلى الجلوس إلى المقعد الوثير، وهو نفس المقعد الذي شغله المقيم العام عندما زار تاديغوست...»

«بسرعة، فهم إتري المناورة.»

«وبدأ القبطان خطابه بالأمازيغية، وهي صفة لا يعرفها عنه إلا قليل من الناس»:

- «إن فرنسا حقوق الإنسان والحرية والمساواة والإخاء بحاجة إلينا كلنا...»

- «تكلم مباشرة بلا لف ولا دوران، فنحن جد متعارفان.»

«أصيب القبطان في أنفته وبدأ يحنق».

- «نعم، أردف القبطان مستسلما، لندخل رأسا إلى الموضوع، لقد دعت الحكومة المؤقتة إلى التعبئة العامة في المستعمرات وأقاليم ما وراء البحار.»

- «نحن لسنا مستعمرة ولا إقليما من أقاليم وراء البحار، أردف إتري بدون أدنى تحفظ وبحيوية وعجرفة».

- «نعم، استطرد القبطان بهدوء رغم أنفه ودمه يغلي في دواخله، نعم ولكن فرنسا جد معتمدة على المغرب»... «خصوصا في هذه المرحلة العصيبة، إن الأمازيغ لا يتركون أصدقاءهم في الشدة أبدا.» «وهو بذلك يريد التأثير في إتري».

«رد إتري بنبرة فظة ومستفزة» :

- «صحيح إذا كان الأمر يخص أصدقاء حقيقيين وليس مستغلين وأسياد يعتبرونك عبدا وقنا».

«شحب وجه الضابط ودخل في وجوم عميق وبدا الحنق واضحا في عينيه، لكنه مرغم على أن يتقبل عناد إتري».

- «لا ندخل معكم الحرب إلا بدعوة من الملك».

- «لقد دعا الملك فعلا إلى ذلك»، (ص98).

وانتهى اللقاء على أساس أن يستشير إتري الأعيان في الأمر ويجيبه بعد ذلك فيما إذا قبل الإنضمام إلى جيش فرنسا ضد ألمانيا أم لا.

ذلك هو السياق الثاني، أما السياق الثالث والأخير، فهو أثناء المشاورة وحديث إتري عن النازية والفاشية وهتلر وموسليني.

«ستحارب فرنسا إلى جانب كل الأحرار، سنحارب معا» (ص118).

ومع ذلك، أعطى إتري صورة جد سلبية عن فرنسا، «لايجب أن نبقى في فراشنا على عش حيات»، (ص119)، «أو أن نثق في الأفعى لون الرمال، لا ترى ولا تميز وسط المناظر الأخرى، إن بعض الفرنسيين مثل تلك الأفعى، تلسعك في الأوقات التي لا تنتظر فيها ذلك، وحينها يكون الوقت قد فات.»، (ص120).

ب -الصور، ملامحها وتأويلها

إن فحص المتن يفضي إلى صور وليس إلى صورة واحدة للمستعمر، وهي صور بعضها معلن عنه والآخر مضمر:

- صورة الضابط قائد الإقليم القابل للإرتشاء والذي لا يستطيع ضبط أعصابه، وهو في الحقيقة صورة البطل النقيض السلبي المعاكس لإتري كصورة إيجابية.

- صورة إيجابية لضابط مثقف ومتفتح على الأفكار الجديدة، يحكم بشكل ديمقراطي ويملك الإصرار الكافي لنصرة الحق، كما يملك القدر الكافي من الحيوية والرقة والإستراتيجية السياسية، بل وأكثر من ذلك متفهم للمقاومة المحلية.

- صورة الضابط المحلي المنهزم أمام إتري، ذلك الانهزام الذي فرضته ظروف الحرب.

أما الصور المضمرة فهي:

- صورة فرنسا الغادرة الأفعى.

- صورة الضباط المعترفون بالقايد المحلي والمحترمون له.

هذه هي الصور وهي قليلة كما وشحيحة في الوصف كيفا، خصوصا فيما يخص الملامح المادية المغيبة بشكل كلي، وذلك رغبة في إضفاء الهامشية والثانوية والسلبية عليها، ومن ثمة تبدت جد باهتة لا لحم فيها ولا دم. أما فيما يخص الملامح المعنوية، فإذا استثنينا بعض الصفات الإيجابية للذي كان يساند إتري، وهي صفات مستمدة أساسا من رهانات ومواقع المتروبول، انفتاحه على أفكار الجبهة الشعبية خصوصا، فهي صفات سلبية وضعيفة عموما.

ولو شئنا قراءة وتأويل الصورة وصفاتها وملامحها لاستنتجنا ما يلي:

- أفصح المتن عن معلومات عالمة تنم عن رغبة الكاتب في الفهم والتفسير، الأمر الذي كان غائبا بالنسبة للتمثل الشفهي العامي والوطني والذين كانوا غالبا ما يرمون المستعمرين كلهم في سلة واحدة، بل وإن استطاعوا التمييز في المعاملة أو في تخفيف التنكيل لدى بعضهم، لم يستطيعوا تفسير ما يحدث هنا بالعودة إلى ما يحدث هناك في فرنسا من رهانات وتهديد ألمانيا لها والصراعات السياسية الحزبية بين حزب الإستعمار والجبهة الشعبية، وهي كلها معارف ومعلومات عالمة تضعنا أمام مستوى آخر من التعامل مع المسألة الكولونيالية، ولو نظرنا إلى الأمر من الزاوية الشكلية الصرفة لاعتبر إيجابيا. إلا أن التكلف والتصنع الذين تحدثنا عنهما سالفا، أفقدا محاولة الفهم جدواها وأفرغاها من محتواها، خصوصا وأن التبريرات كلها جاءت في سياق تمجيد إتري.

- نظرا للإهتمام المبالغ فيه بإتري، سقط الكاتب في تناقضات بل وأعطى معلومات غير واقعية مثل حدث انتخاب إتري الذي يعتبر واقعة تاريخية فعلية، إلا أن حديث الكاتب عن بعض التفاصيل مثل إرشاء الناخبين جاء مناقضا لما يملكه المخبرون من أخبار عن هذه التفاصيل... بل هناك من يذكر عكس ما ذهب إليه الكاتب. ولم يكن لدى الكاتب أدنى تحفظ بصدد خصم إتري، بل هاجمه هجوما عنيفا ومعلنا مثل قوله: «الكلاب تنبح والقافلة تسير»...

- يتحدث إتري وبطلاقة عن النازية والفاشية وهتلر وموسوليني، ونستبعد هنا الإلمام بهذه المواضيع، بل وحتى وإن كان هناك بعض الإلمام لدى إتري فيستبعد أن يكون عند المخاطبين بها.

-أما فيما يخص إمكانية إذلال إتري، مغربي مسلم، لضابط فرنسي، وهو بيت القصيد في الصورة الاستعمارية الغريبة التي ركز عليها الكاتب، سألنا كثيرا من المعاصرين حول إمكانية حدوث ذلك، فكان الإجماع بالنفي خصوصا بالنسبة للمرحلة التي اختارها الكاتب لسرد تلك الأحداث، الحرب العالمية الثانية، إذ لا يمكن أن نتحدث عن بعض ذلك يقول المخبرون إلا بعد 1954 وبداية تواجد بعض الوطنيين المغاربة المهاجرين من مدن مغربية داخلية نحو كولميمة، معلم وميكانيكي كنماذج شبه أسطورية.

كيف يمكن أن نفسر المفارقة ؟ ولماذا ركز الكاتب على هذه الصورة الذليلة للمستعمر؟

إنها هموم الحاضر طغت على تسجيل الماضي، وبذلك يزكي العمل الذي نحن بصدده هنا كون التاريخ عملية حاضرة قبل أن تكون ماضيا.

أخيرا لا يمكن أن نفهم ما كتبه المؤلف إلا بالرجوع إلى المرجعية القبلية رغم التستر وراء مرجعيات لعل أهمها وأكثرها بروزا، المرجعية الدينية.

ج - أهداف الصور ومرجعيتها المعلنة والمضمرة

إن الهدف من تشكيل الصور حول المستعمر في رواية مجرة المجد، لم يكن الرغبة في معرفته وتحديد ملامحه من أجل إدراكه وفهمه كظاهرة أدبية تستحق الإهتمام،

بل كان الهدف أن تشكل أرضية لملامح صورة أخرى أساسية، صورة الأب - الزعيم الكاريزمي، ومن ثمة حضور القبيلة كمرجعية لا تقاوم رغم الإهتمام المبالغ فيه أحيانا بالدين والوطن. ولعل العناية الشديدة بالأعراف وتخصيص حيز شاذ لها، لدليل قوي على ما نذهب إليه. إن رواية مجرة المجد حنين لمجد اللف والقبيلة والفخذة والعائلة.

د - أزمنة الصور

هي أزمنة ثلاث تتداخل لتشكل ديمومة الماضي في الحاضر (زمن المصور - الكاتب وزمن الأحداث والشخوص ثم زمن المتلقي..) وهي كلها أزمنة ماضوية رغم هموم الحاضر. إنها أزمنة ردود الفعل رغم التمظهر بالفعل والمبادرة.

3 - معايير الحكم على الصور:

أ - مصدرها

ليس الباعث على التشكيل، كما أسلف الذكر، الرغبة في الفهم باستدلال أو بدونه، وليس حتى طوبا لأنه ماضوية وعتاقة ومن ثمة غياب الرأي.

ب - قوة المطابقة

لم تكن الصور مطابقة بحكم مرجعيتها وطبيعة مصدرها وباعثها، والحكم على ذلك بالعودة إلى المقارعة مع رأي المخبرين المعاصرين للأحداث التي حاول الكاتب سردها، وكذلك بالمقارنة مع المتون السابقة، الشفهية والكتابية، الوطنية والكولونيالية. وكذلك بالمقارنة مع الرواية المقبلة في التحليل.

ج - أثر الصورة

- لم تثر الرواية نقاشا، لكن هل هناك الآن شيء يثير القراءة والنقاش.

نتائج

- الرواية مناسبة لتلميع صورة محورية وهي صورة الشخصية الرئيسية والمركزية، إتري، الأب-الزعيم-الكاريزمي.

- اتخذ العمل صبغة تهويلية عكسا على الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية المتسم بالواقعية.

- غلبت على العمل استيهامات انتقائية تجلت في معجم متكلف وخيالي على شكل مستبقات وصور نمطية.

- هي مناسبة سوسيولوجية للتأكيد على استمرار القبيلة حنينا وقيما ومرجعية ومواقع.

V- أضحية الأبقار السوداء، أو الرصد الأدبي للتحول-التحويل الكولونيالي لمجتمع الواحة[1]

نحاول هنا قراءة وتأويل الرواية كشهادة سوسيولوجية متعددة الأبعاد، من أجل استنطاق التمثل العالم الحاضر للظاهرة الاستعمارية، ولا تهمنا الأبعاد الأنثربولوجية المونوغرافية للعمل حول الحياة اليومية للواحة رغم وعينا بأهميتها، وذلك انطلاقا من قصدية فروض بحثنا المحدودة.

المكان، واحة فركلة توأم واحة غريس، وقد التصق الكاتب بالمكان التصاقا بؤريا لافتا لا يدع للأمكنة المجاورة أية فرصة في البروز، إذ لا شيء يذكر إلا لماما بالأمكنة المجاورة (أغبالو نكردوس-كلميمة- قصر السوق)، وربما قصد الكاتب ذلك لإمكانية التعميم نظرا للتجانس الشديد بين الفضاءات تلك أو تواضعا في قصر الشهادة على ما شهده وعاينه فحسب.

الزمان زمانان، زمن محلي طبعه الجفاف الطبيعي وشح السماء، لكنه جفاف ضاعفت حدته المضخات المائية كتقنية حديثة في الري. ثم الزمن التاريخي-الوطني الذي صادف نفي الملك محمد الخامس. مع قصدية في اللاتعيين واللاتحديد نحو الانفلات دلالة التكرار، وذلك جد باد من خلال طغيان الزمن الطبيعي (الليل والنهار، الصيف والشتاء...) دون نسيان حضور الحاضر (لازال هم إحياء الواحة حاضرا وربما بحدة أكثر...)

لقد كان السياق سياسيا حادا، الأمر الذي أضفى على اللحظة خصوبة نادرة، وإذا أضيفت إلى كل ذلك الإعتقالات والتنكيل والجفافين اتخذ الأمر صبغة الفاجعة.

أما الشخوص فهي أصناف :

محمد الخامس، كرمز أعلى مكثف للوطن، «دماغ المقاومة»، (ص103).

«باسو»-الشيخ، والذي يكثف حكمة الماضي انطلاقا من محاولته إنقاذ الواحة بتدبير إحراق المضخات حتى يعود مستوى المياه الجوفية إلى حالته الطبيعية. إنه بسنه

1- Layid , M. *Le Sacrifice des Vaches Noires*, Eddif, 1992

المائة رمز بنية مهددة وتريد الانتقام لنفسها، «يجب أن أفعل شيئا ما لهذه الواحة»، (ص18). إنه سقراط محاورات أفلاطون، لسان حال الكاتب وناطقه الأدبي، وقد اختاره شيخا ليعطي القوة والعمق لمواقفه وأرائه.

«يدير»، بطل الرواية الذي نفذ أوامر باسو تحت ضغط الحاجة أولا والاقتناع بجدوى فعله ثانية. إلا أن عملية إنقاذ الواحة لم تكن سوى مناسبة تقنية للعمل على إنقاذ الوطن، إذ مكنه عمله بالليل على الالتقاء بالوطنيين وتكليفهم له بالربط بينهم وبين معتقلي «أغبالو نكردوس».

من إنقاذ الواحة إلى إنقاذ الوطن.

«إيطو»، زوجة يدير، رمز عشق الأرض والحقيقة، جنت بسبب اعتقال زوجها ولاتهامها بخيانته أثناء غيابه. هي الواحة والوطن، وجنونها دلالة فقدان الذات والشخصية الذين عملت السلطات الكولونيالية على سلبهما للواحة. أما مسألة اتهامها واستغلاله من طرف الكاتب فدليل على نفاذ عميق من طرفه إلى عمق النفسية الواحية المتكئة على العرض والعار.

«موحا» و«حورية» (الإسم الذي اختاره الفقيه كرمز للإستقلال المأمول)، أبناء يدير وإيطو.

«عائشة»، بنت باسو الشيخ.

«لحسن»، زوج عائشة.

الأبناء الثلاثة لعائشة ولحسن، أسرة لحسن كلها مناسبة لوصف اليومي وبعض أساليب الحياة والمعاش.

«هدة»، أم يدير، مناسبة لوصف دور المرأة الواحية بصبرها ومثابرتها، رغم غيرتها من إيطو في البداية تتبنتاها في محنتها فيما بعد.

«عثمان»، ابن عم يدير.

«موحا أوعلي» أب يدير، شكلت موته مناسبة لتيه يدير وتحمله المسؤولية مبكرا.

حفدة باسو، رمز الأمل واستمرار وبقاء الواحة والوطن.

«حمو»، أول سياق يتحدث فيه الكاتب عن السلطات الكولونيالية والشخصيات الاستعمارية.

ضابط الصف، يمارس الاستعمار أكثر من المستعمرين، يبالغ في عنفه والذي ستكتشف وطنيته فيما بعد.

رئيس العمال، مناسبة لإبراز التحولات الاجتماعية على مستوى تنظيم الشغل وأشكاله وأساليبه.

بعد ذلك تأتي شخوص ثانوية مثل الكاتب والمترجم وصاحب محطة البنزين والقائد والشيوخ والجماعة والأعيان والمخازنية ثم الساحرة والسواح.

ثم المجاهدون، الظلال الثلاثة التي لا يتحدث عنها إلا في الليل.

ثم إبراز شديد للضابط وزوجته ومحاولة مناقشة الاستعمار من خلالهما، وهو ما يهمنا هنا بالأساس.

هي شخوص إذا كثيرة ومتعددة لكنه يمكن تصنيفها كما يلي :

- محمد الخامس

- أهل القصر وساكنته

- الإدارة الاستعمارية وما يحوم حولها من أتباع ومنفذون

- المجاهدون

-بعض الشخصيات الثانوية.

أ - وصف المتن وتقنية الكتابة

تمحورت الرواية حول أزمة، تبدت طبيعية، لكنها كانت من صنع الإنسان، المحلي

أولا، وهو مالك المضخات التي استنزفت المياه الجوفية، وفاعل حقيقي غير مباشر هو المستعمر الذي مكن بعض الواحيين من الاشتغال خارج الواحة مقابل أجور شكلت رؤوس أموال وسيولة لم تعهدها الواحة، وبالسيولة تلك استطاع أولئك شراء المضخات ومن ثمة الجفاف القاتل للواحة كلها.

هذا هو الشق الأول للتيمة الرئيسية أما الشق الثاني فهو ما العمل؟ السؤال الذي طرحه باسو والذي اهتدى إلى حل هو تخريب المضخات، الحل الذي لم يدر في خلده أنه سيمهد لحل آخر هو العمل السياسي الوطني، من تخريب المضخات ومحاولة إحياء الواحة إلى الجهاد من أجل تحرير الوطن.

هل فكر الكاتب في كون كل ما هو وطني عام يجب أن يبدأ بما هو محلي خاص؟

إحياء وإنعاش الواحة بتحطيم وحرق المضخات والعمل مع الوطنيين في نفس الوقت من أجل الإستقلال، تلك كانت التيمة-المبادرة التي اخترقت العمل كله.

هي رسالة إذا، لكن قيمتها الأدبية التي أسبغت عليها تصورا منسجما للعالم أعطتها قوة وأصالة، أولا في عمق التفكير فيها وثانية في هامش إيحائي مكن من إثارة وإغناء التساؤل، ليس حول بؤرة ضيقة هي الواحة، بل حول الوطن والاستعمار والثقافة المحلية والمقاومة والماء والقبيلة وأشياء كثيرة أخرى.

نحن إذا أمام جائحتين طوفانيتين، الجفاف والاستعمار، أما وسائل المقاومة وآلياتها فقد تبدت جد ضعيفة، شيخ فقير وشاب هزيل يقاومان الجفاف، وظلال تقاوم الاستعمار. ولعل عدم التكافؤ هذا هو الذي أعطى للتيمة الطابع الدرامي القدري، ولعل تكرار لازمة التقاء مشيئة القدر مع مشيئة البشر في الرواية خير دليل على ما ذهبنا إليه، ومن ثمة الحضور القوي للمرجعية القدرية. إلا أنه ورغم ضعف المقاومين فقد نجحوا في إحياء الواحة من جهة والحصول على استقلال الوطن من جهة ثانية، وكل ذلك دليل الوعي بأهمية إرادة الأفراد والشعوب في الانعتاق.

ونظرا لامتلاك الكاتب لمعرفة دقيقة بالمعاش الواحي والتي تظهر مثلا في توظيفه لرموز معاشية ثقافية مليئة بالدلالة، حقول الفصة والذرة، السواقي والضفادع

والأسماك، سنبلة الذرة. ونظرا أيضا لحسن تفكيره بل وتكلمه بالطريقة الواحية. ونظرا مرة ثالثة لحسن استعماله لعبة الربط والترابط، الشيخ والشجرة العتيقة كأحسن مثال. نظرا لكل ذلك استغل الكاتب أدبية جيدة ومقومات سردية عالية استعمل فيها تقنيات ذكية نوردها هنا حتى نقترب من المتن وطريقة تفكيره وأسلوب تواصله.

وانطلاقا من جدل علاقة الذات، الواحة بالآخر، المستعمر خصوصا، طغت على السطح التشبيهات والاستعارات والصور والتمثيل والمقابلة، «الطلب من الله أن ينتهي احتلال المضخات»، (ص29)، فصل بأكمله، الميلاد والموت وآخر، القمع والفقر والحب، «من النار يولد الماء»...(ص26)

شيخ لكنه قوي وشاب لكنه ضعيف، ذكر لكنه ضعيف وأنثى لكنها قوية. «كل ماستربحه من أموال ستخسره كرامة»،(ص34)، «صمود بنادق لوبل أمام المدافع الرشاشة في بادو»، (ص34).

ولم يكتف الكاتب بالوصف والصور والتي نجح فيهما إلى حد بعيد، بل تجاوزهما نحو محاولة الفهم والتفسير والتأويل والتعليل، «إن جفاف هذه المرة سببه الإنسان»، (ص28)، «أصبحت عضلاته رخوة بالجلوس على مقاعد المدرسة»، (ص16)، «كل خلايا جسمه أصبحت أقل استخداما سواء العضلية أم العصبية منها»، (ص31)، كما حاول تفسير الأحلام والرموز، (حلم الحقول الخضراء والزوجة ورمز سنبلة الذرة العملاقة)، (ص2).

كما استغل الكاتب تقنيات سردية أخرى مثل الحوار والحوار الداخلي والعزل من أجل التشخيص، بل واستعمل بعض الآليات النفسية في التفسير، «إن قساوة الطبيعة تستدعي أن ننفجر على شيء ما أو أفضل على شخص ما»، (ص42). كما طفت بعض التأملات الفلسفية في سياقات تستدعي ذلك، مراقبة سلوك اللواء تجاه قطة الضابط الاستعماري وإيثارها بالحديث على شؤون الواحة، حيث استنتج الكاتب غرابة الإنسان الذي لا يقدر سوى من لايدري قيمة ذلك التقدير. (ص169). «لقد قال في نفسه إن المهم ليس هو الحقيقة وإنما ما نظنه كذلك». (ص205)

ولقد استطاع الكاتب بحسه الواحي، إن صح التعبير، وبمعرفته بالعوائد أن ينفذ إلى عمق الإنسية المحلية، «الآن أدرك لماذا يقال لأشخاص مثله عندما لا يستطيعون أن يستحقوا مستوى أجدادهم : إن النار تلد الرماد»، (ص43).

إضافة إلى كل ما سبق امتلك الكاتب حس التدرج والتدريج والتشويق وخلق المفاجأة وكسر أفق الانتظار، كاكتشاف القارئ في آخر الرواية لوطنية أشخاص متعاونين مع الاستعمار، البريكاديي المغربي أو حتى من تبدوا سلبيين مثل الفقيه.

كما استطاع أن ينتج أزمنة وسياقات ميتة كمتنفس للسرد، ولم يركز أثناء التصوير على بؤر الصور فحسب بل صور معها أرضياتها وهوامشها. كما أتقن تقنية الاسترجاع. وقد كان للكاتب إدراك عميق للذوق المحلي، «الذي يفضل الخضر على الورد، يجب أن تشبع أولا وأن تتمتع بعد ذلك...»، (ص39). أخيرا اشتغل الكاتب على معجم عصري كولونيالي: «شومور»، «برمسيون»، «شانطي»، «شاف»...

ب - المرجعية

كجل المتون الأخرى المفحوصة سابقا، تتراوح المرجعية هنا بين الديني والقبلي بمدلولهما الإيجابي (قوة الإيحاء، مساهمة الفقيه في المقاومة، التآزر والتكافل...) مع إضافة البعد الوطني بل والإنساني. لقد تبدت المرجعية الدينية واضحة مثلا في استشارة باسو للفقيه في فعله المركزي، إحراق المضخات، وكذلك في اختيار الفقيه إسم بنت يدير. وتصعد الدينية نحو القدرية في حلول الجفاف مع الاستعمار ونفي الملك الشرعي. أما القبلية فتبدت كقتالية وحربية مثلا في «خجل يدير من نفسه أن يبكي كفتاة وهو سليل المحاربين»، (ص43)، «إننا في الواحة نعيش على قدر ما نستطيع، لكننا نفكر كما نشاء»، (ص46).

ج - إشارات وتلميحات وتعاليق حول رصد التحولات وأثر الفعل الكولونيالي على الواحة

- التحول-التحويل الغذائي ونمط العيش:

الحليب المصبر والاستغراب من كميته، المنتوجات الصناعية التي بدأت تقذف بها مصانع الدار البيضاء، التحولات السريعة وغير المعهودة التي أحدثتها التكنولوجيا كما وسرعة وكثافة، والتي زعزعت الواحة التي صمدت لقرون. إحساس مبهم بالتلوث برائحة البنزين...(ص28)

- التحول- التحويل على مستوى الجسد:

جعلت المدرسة جسد التلاميذ ضعيفا ورخوا، كما أنها لم تهيء لهم شخصية قوية ناجحة، كما لم تترك أجسادهم للقوة الطبيعية، (ص31). بدأت الساكنة تدخل بعض التحسينات والتجميلات على الجسد، الأسنان-القواطع خصوصا، والتي استبدلت بأخرى ذهبية وترك الأضراس مسوسة مادامت غير مرئية...(ص41)، البدلة الزرقاء والقبعة، رمز العمل المأجور، بدل العمامة، (ص47).

- التحول-التحويل على مستوى الشغل وأشكال تنظيمه:

ظهور أشكال جديدة للعمل، «لاطاش»، «السربيس». العمل المأجور عموما والهجرة بالخصوص والتي اجتثت الواحي من منبته نحو المدينة، «إن المدينة كالبحر المحيط، إنها جد واسعة وغائرة العمق ولا ترحم» (ص36)

- التحول المجالي والمعماري، انفجار القصر:

الخروج من سور القصر والتوجه نحو الطريق، «دور زاهية، لكنها رغم ذلك، تثير الشفقة»، (ص41)، «سكانها يعيشون الجحيم في الصيف ولكنهم لا يستطيعون قول ذلك، المظاهر فقط هي التي تهم»، (ص41)، «منازلهم كأفواههم لا تبدو جميلة إلا في الخارج»، (ص41).

- التحول في القيم والتوجهات:

بروز قيم سلبية جديدة لم تعهدها الواحة مثل النفاق والكذب والجبن والرشوة والعمل على نيل رضى الإدارة الاستعمارية، (ص55).

- التحويل المباشر للا ستعمار:

استعملت السلطات الاستعمارية أساليب مباشرة في الفعل في الجسد الواحي مثل السخرة (بناء حائط حديقة الضابط... (ص56)، صناعة الجير والجبس... (ص70)، كما عملت على حفظ الأمن وممتلكات الناس، (ص57). إلا أن أهم ما قامت به كان هو خلخلة البنية التراتبية التقليديةل شبه الإثنية للواحة، «أصبح المشتغلون في الأوراش يشكلون برجوازية عمالية تنافس موظفي المكاتب»، (ص68).

د - صورة المستعمر في الرواية

- الصورة الفيزيقية:

«رجل في الأربعين من عمره، يملك وجها بيضويا ولحية سوداء، قامته متوسطة لكن قبعته تضفي عليه طولا واستقامة أكبر، لاأحد رأى عينيه المختفيتين وراء نظارتين داكنتين- رغم كون الناس يتخيولونهما زرقاوين-، بكل ذلك لا نستطيع أن نقرأ أي شيء في وجهه. يعبث بأصابعه الطويلة والرقيقة كأصابع راقن، بشعره الرمادي الوفير.»، (ص71).

- الصورة المعنوية:

شخص لا يتعب أبدا. «إنه جاء هنا ليدير ولا حق لمسؤول مثله أن تكون له عواطف، إن طبيعة الواجب مدعوة إلى خنقها»، (ص73). ورغم ذلك فضميره وتاريخه كمقاوم قديم ضد النازية أودعا نفسيته للقلق والأرق والوساوس... إنه حكم جيد في النزاعات... (ص72)، «يحب الذين يشتغلون جيدا وفي صمت»، (ص58).

- مهامه ووظائفه:

استتباب الأمن أولا، «خلق شبكة تصنت تملأ الواحة كلها»... (ص81). واهتمام بالحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للواحة... (ص74)، العمل على تحويل توجه الشباب الوطني من «مخدرات الأفكار الوطنية»، (ص70)، «نحو الإهتمام بمشكل إحراق المضخات»، (ص70).

إلا أن الذي طغى على صورة الضابط الفرنسي في العمل كله وساوسه ووخز الضمير له والذان يعاني منهما صباح مساء، (ص76)، وهو الذي لا يرى، هو وزوجته،

جدوى العملية الاستعمارية كلها خصوصا بالنسبة لواحات فقيرة وساكنة مستضعفة، الأمر الذي يضفي على وجودهما في الواحة طابع المفارقة.

نتائج

نحن في هذا العمل أمام تقابلات محورية، وأخرى ثانوية، ولكل تقابل متنفسه، الاستعمار من خلال الضابط وترسانته من جهة، والواحة وساكنتها من جهة ثانية، ومتنفس التقابل: باسو ويدير. أب يدير وزوجته كرمز لثقل وسلبية التقاليد وإيطو كرمز للحب، ومتنفس التقابل: الإبن الجديد. يدير كبستاني الضابط والضابط نفسه وزوجته، ومتنفس التقابل: تهمة الخيانة والتبرئة بشهادة تكنولوجية، أخذت زوجة الضابط صورا ليدير وإيطو وهما في حالة ممارسة حب جسدية.

وأثناء التقابلات استطاع الكاتب أن يبرز آليات الهيمنة والمتمثلة في العنف والاستخبار، وآليات المقاومة المبنية أساسا على الدين والأخلاق والالتزام والتشبث بالقيم التقليدية، مثل التفكير في عدم الإنجاب وتصور الذات قطيعا من الأغنام تحت السلطة الاستعمارية، (ص ص 90-91).

لقد استطاعت التجربة الدرامية أن تغير كثيرا من ملامح الواحة بل وسلوكات ساكنتها، ووصل التغيير إلى حدود التوجهات والقيم من مثل محاولة تجاوز الخرافة عند يدير، لكنه بأسلوب نصف نصف فقط نظرا لقبولها، أي الخرافة، عند رغبة إشفاء أمه لزوجته ولو بالشعوذة وكذلك ذبح الأضحيات السوداء.

ويبقى أهم تغيير ذهني في رأينا هو اتخاذ الحرية دلالة أكثر عمقا واتساعا وتجريدا تجاوزا للتلقائية الفيزيقية اللتين كانت تتسم بهما قبل تجربة الاستعمار.

كما لنا أن نشير هنا إلى ملاحظة جيدة استنتجها الكاتب أثناء التحدث عن الحركة الوطنية، وهي كون الواحيين منفذون فحسب وهو أمر مازال ساريا لحد الآن.

أما المسكوت عنه الأعظم في الرواية فيبقى تراتبية الواحة المعهودة والإثنية خصوصا، الأمر الذي يزكي الطابع القصدي والواعي للعمل الذي يعلم بعمق مدى حساسية الموضوع الذي سيصبح ظاهرة ملفتة، ليس في الحقبة الكولونيالية ولا أثناء

الحركة الوطنية والمقاومة وبداية الإستقلال، بل في السبعينات وما بعد، خصوصا أثناء حملات الإنتخابات.

خاتمة

لقد أفادنا فحص وعي الذات بنفسها عبر الرواية الشفوية والشعر والسيرة والرواية وكيفية تمثلها لظاهرة الاستعمار، كون هذه الذات اعتمدت في قراءة الحدث على مرجعيات شبه ثابتة، لعل أهمها القدر، الذي وجدناه متكأ محوريا للشاعر المناصر لمناهضة الاستعمار، كتب علينا أن نستعمر كما كتب علينا كذلك أن نقاوم، كما وجدناه في رواية أضحية الأبقار السوداء، لكن باختلاف طفيف وهو اقتراب دلالته من فعل مركب شاركت فيه السماء والأرض والإنسان المحلي والاستعمار.

إلى جانب القدر نجد البعد العقائدي حاضرا بقوة في المقاومة وإثبات الذات، خصوصا عند المقاوم الوطني المستحضر لهذا البعد كمقوم أساسي للكيان والمقاومة والصيرورة، وكذلك بشكل واضح في الروايتين، حيث فرضت رحلة الحج والمدرسة القرآنية على مجرة المجد فصولا بأكملها، وكذلك عمل تدمير المضخات لم يكن إلا بفتوى الفقيه-المجاهد.

إلى جانب القدر والعقيدة تحضر أبعاد أخرى مثل القبيلة بقيمها التقليدية وأعرافها الإيجابية المتوارثة، وببعض ممارساتها السلبية من خرافة وماضوية، وكذلك يحضر_الوطن_كبعد جديد فرضته مقاومة المحتل، لكن ضمن الأمة ودار الإسلام.

تلك هي الأبعاد الأساسية المتحكمة في التمثل الواعي وشبه الواعي للظاهرة الاستعمارية، وهو تمثل مزيج بمرجعية معقدة ومتداخلة: قدر وعقيدة ووطن وقبيلة.

إلا أنه ورغم تعقد وتداخل مرجعيات التمثل، فقد أبان عن وجود شخصية متميزة وكينونة مستقلة تعشق هويتها وحريتها، ذلك التميز الذي لا يمكن أن يجنح إلى أي نوع من أنواع الإندماج مع الغالب، ذلك الإندماج الذي حصل في مناطق أخرى من العالم.

كما أن التحول وإن مس الأشياء والمسلكيات والعادات والأعراف، وخلق أذواقا جديدة وتوجهات غير معهودة، فإنه لم يستطع أن يرقى إلى مستوى النظرة إلى العالم وخلق آليات تبرير عليا مثل الأسطورة والإيديولوجيا، كما حصل ذلك في مناطق أخرى من العالم عانت من الاستعمار مثل إفريقيا وأمريكا.

وهذا ما سنحاول إبرازه في خاتمة البحث.

خاتمــة

أو جدل العام والخاص

لقد حاولت الإستراتجية الكولونيالية في التغير والتحول أن تكون شاملة ومتعددة الأبعاد، كما أنها كانت مختلفة الإهتمام والتوجه، فتعاملها لم يكن موحدا ومتجانسا مع جميع مكونات المجتمع الغريسي، حيث كان الإختلاف الإيكولوجي والمعاشي بين المستقرين والبدو، بين سكان السفح والجبل جد واضح، الأمر الذي فرض التنوع في السياسة الأهلية.

غير أنه ورغم كل ذلك فقد أجمع المسؤولون الأهليون على الإشتغال على آليات أساسية بها ضمنت حدا أدنى من «التهدئة» والإستمرار في تدبير النظرة الجديدة المعتمدة أساسا على الفعل المحوري الذي كان هو التوطين لأن الطبيعة المتحركة للساكنة شكلت دوما العائق الأول لأي مشروع دمجي استعماري.

لقد استعملت السلطات الكولونيالية آليات أساسية في التوطين، لعل أهمها زرع الفيلاج تجاوزا للوضع «السيبي» حيث لم تكن القبائل واللفوف، بل وكذلك القسمات تعرف حدودا مجالية دقيقة ومضبوطة، رغم كون الأعراف كانت كثيرا ما تحاول رسمها، خصوصا المراعي عامة و«إكدلان» - المراعي المحروسة- بشكل خاص. إلا أن العوامل الإيكولوجية والمعاشية، من جفاف وتزايد سكان القبيلة وغيرها، كانت كثيرا ما تحول دون استمرار الحيازة التامة للملكيات، ومن ثمة التغير الشديد على مستوى، ليس الحدود فحسب بل وملكية، ليس المنتجعات فحسب، بل والقصور نفسها.

وتجاوزا لذلك الوضع، عمدت السلطات الكولونيالية كثيرا إلى تثبيت الملكية، وذلك ضمن أوفاق وعهود، فزكت أعرافا وخلقت اجتهادات جديدة من أجل توحيد الملكية وتثبيتها، رغم كون المحاولات كانت كثيرا ما تقف أمامها عراقيل كثيرة، لعل أهمها الإرث الثقافي المتأصل.

ورغم كل العوائق فقد استطاعت السلطات الاستعمارية أن ترسم حدودا على مستويات عليا ودنيا، انطلاقا من اللفوف (أيت عطا وأيت يافلمان) نحو القبيلة (أيت حديدو وأيت مرغاد مثلا) ثم القسمات داخل كل قبيلة بل وبين القصور نفسها أحيانا.

ورغم كون الرغبة كانت أكيدة في تثبيت الملكية ورسم الحدود، فإن المعايير المعتمدة بقيت تقليدية (اللف والقبيلة) كما أشرنا إلى ذلك باستثناء الآلية المجالية، زرع الفيلاج التي يبدو أنها أنشئت وفق معايير أمنية بالدرجة الأولى.

إن ثنائية وازدواجية المعيارية تلك خلقت تناقضا في الفعل الكولونيالي، العمل على المحافظة على القبيلة إسما وإدارة وملكية وحدودا مع محاولة تحطيمها ببناء الفيلاج كمحطة جذب إدارية واقتصادية.

ولم يكن زرع الفيلاج وحده الآلية التي شغلتها السلطات الكولونيالية، بل استعملت مؤسسات أخرى من أجل تمرير مشروعها، لعل أهمها مؤسسة القايد. لقد حاول المشروع الكولونيالي أن يبقي على مؤسسات السلط المحلية التقليدية، لجماعت وأمغار خصوصا إلى جانب سلطته الفعلية، لكن بعدما أفرغهما من محتواهما العرفي مصطبغا إياهما بالعمالة أساسا، والتنفيذية ثانية، وبالإجرائية والفعالية والنجاعة ثالثة، وبذلك تم توظيفهما في خلخلة البنيات التقليدية نفسها.

ومن ثمة الإزدواجية التي طبعت سلوك الأعيان-الأعوان، فهم أعوان يحاولون التمظهر بالجدية والعمل للصالح العام من جهة، وعملاء كشرط لتوزيع النعم من جهة ثانية. ولم تخل عملية اختيار القايد المحلي من مشاكل وصعوبات احتكم فيها أحيانا للإنتخاب بالإقتراع العام وتشغيل الدعاية والتصويت السري كآلية حداثية لم تعهدها عقلية الواحة، لكنها خضعت لها وببعض الحماس كما تؤكد الرواية الشفوية ذلك. ولقد كان الإختيار غالبا ما ينطلق من التعيينات المخزنية التقليدية، حيث اختير القياد الأوائل من أبناء قياد المولى الحسن الأول، الأمر الذي يؤكد فهم المشروع الكولونيالي عدم انفصال أجزاء المجتمع المغربي فيما بينها وعلاقتها المستمرة مع السلطة المركزية.

وقد حرص الفرنسيون على عدالة القايد لإدارته للشأن العام رغم غضوضهم الطرف عن تجاوزاته الشخصية على مستوى العنف والرشوة مثلا. إن الاستعمار وإن كان هدفه خلق اضطراب شديد في الإنية عبر تفكيكها وخلق خلل عميق في نظامها بالتجزيء والتقسيم، عمل أيضا على التنشئة الجديدة والمراقبة والإدماج.

إلى جانب التهيئة المجالية التوطينية، زرع الفيلاج والقايد كزعيم كاريزمي ممرر للتحويل، استغل الاستعمار آليات أخرى مثل المدرسة والصحة وخلق أوراش الشغل. إلى غير ذلك من الآليات التي كانت تدور كلها في فلك نظرية مركزية هي نظرية العنف.

أمام هذه الآليات كيف تفاعلت الساكنة الواحية ؟

لم تستسلم الساكنة الغريسية لقدر الاستعمار، بل قاومته مقاومة متعددة الأشكال والأبعاد، وذلك منذ البوادر الأولى، حيث شارك الغريسيون في معركة بودنيب (1907) وآووا من هرب من أيت حمو وأيت سغروشن إثر اندحارهم ببودنيب، كما آووا من هاجر من الخنيفريين إثر معركة لهري(1914) وذلك كله بروح دينية ووطنية عالية.

الأمر الذي يزكي مرة أخرى، انتماء واحة غريس إلى المجتمع المغربي، وعدم عزلتها المطلقة.

إن كثيرا من الظواهر والسلوكات المحلية الغريسية وإن كانت تبدو جد محلية، فهي منتمية إلى الوطن الأم، كيف يمكن تفسير نجدة المناطق الأخرى أثناء تعرضها للهجوم، أو الهجرة إلى أخرى لم يصلها المحتل، بل وكيف يمكن تفسير مشاركة الغريسيين في بعض المعارك البعيدة، الريف مثلا؟ كيف يمكن تفسير كل ذلك، دون استحضار عمق الإنتماء إلى وحدة ترابية ووطنية، وإن كان لايحسن التعبير عنها لضعف التواصل..

تلك كانت المرحلة الأولى وهي مرحلة مساندة المناطق الأخرى التي سبق إليها الزحف الإستعماري.

بعد ذلك جاءت مرحلة انقسم فيها الجهاد إلى قسمين، العمل إلى جانب جيوش بلقاسم في تافيلالت أو ضرب المصالح الفرنسية في قصر السوق (الرشيدية الآن). وقد اتسمت هذه المرحلة بالقصف الشديد لقصور الغريسيين تمهيدا للهجوم الذي سبقته موقعة شهيرة كاد أن يبيد فيها الغريسيون فيلقا فرنسيا بأكمله في مكان يقال له «أمكلكال» بين كولميمة والرشيدية.

بعد الموقعة تلك جاء الهجوم الذي يمكن أن نعتبره المرحلة الحاسمة والتي اتخذت فيها المقاومة صبغة الدفاع عن مواقع الماء والقصور، إنها معارك «أغنبو» كولميمة و«للا ولية» تاديغوست 18 نونبر 1931. وهو اليوم الذي تم فيه الإستيلاء على الواحتين.

ورغم استسلام الساكنة، فقد فاجأت النصارى ظاهرة غريبة لم تكن في الحسبان وهي هجرة جل سكان تاديغوست نحو «تاغيا» و«أسول» أعلى الوادي استعدادا للمعركة الغريسية الشهيرة «بادو»، وهو جبل شاهق احتمت به الساكنة أسرا ونساءا ودوابا، لكن شراسة القصف الفرنسي الذي استهدف الكل، بما في ذلك النساء والأطفال والشيوخ والدواب ومواقع المياه، اضطر قواد المسلمين إلى الإستسلام.

استسلمت غريس، وبدا أن سياسة «التهدئة» بدأت تؤتي أكلها، إلا أن أحد المجاهدين لم يترك الأمور تنتهي كما أرادتها السياسة الأهلية، إنه زايد أحماد الذي استطاع أن يزرع بعملياته الرعب والفزع في قلوب المسؤولين الفرنسيين الذين لم يستطيعوا القضاء عليه إلا بعد أن قتل منهم عددا غير يسير.

هي مراحل خمس إذن تشكل صيرورة المقاومة المسلحة الغريسية:

- مرحلة النجدة والإغاثة؛

- مرحلة الهجمات إما منظمة تحت إمرة المهدي التوزونيني وبلقاسم النكادي، جماعات أو فرادى حتى؛

- مرحلة الهجوم الفرنسي المنظم للإستيلاء على الواحة والوادي؛

- معركة بادو؛

وبعدها ملحمة زايد أحماد.

الأمر الذي يؤكد طابع الصيرورة في التغير، فكما كانت رغبة الاستعمار زمنية وبمراحل، كذلك كانت المقاومة في زمن وبمراحل.

لقد كان الإستنفار كليا وكانت البواعث قوية تطال الوجود والعقيدة والوطن والمصالح الحيوية من مراعي ومواقع المياه، وكانت المعنويات جد مرتفعة وكذلك الروح القتالية. غير أن سوء التنظيم وضعف التنسيق وقلة الموارد والتمويل، كل ذلك حال دون بلوغ المرمى، لكن الإستسلامات لم تكن في أي لحظة مجانية.

لم تكن مقاومة المشروع الاستعماري مسلحة فحسب، بل كانت أيضا معنوية ورمزية، سواء على المستوى العقائدي أو الثقافي وتعبئة الفقهاء للساكنة وحثهم على مقاطعة أي شيء يأتي من الآخر الذي يحاول اجتثاث الذات، رفض الزي الأجنبي ولباسه ومنتوجاته المصنعة، وقد اتخذ الرفض شكلا ظاهراتيا متعمدا على مستويات ثلاث :

رفض الفيلاج، خصوصا من طرف الفئات المحاربة والإثنيات البدوية، بل واعتبر السكن فيه عارا ولم يستوطنه غير المتعاونين من الكوم وبعض من تحطمت عصبته.

كما تجلت المقاومة الرمزية أيضا فيما يمكن أن نسميه بخواف التنصير وذلك برفض التمدرس، ذلك الرفض الذي تجلى في أشكال عدة من دفع الرشاوى مقابل عدم تسجيل الأبناء أو إرشاء الساكنة بعضهم لبعض لينوب إبن المرتشي إبن الراشي في التسجيل، واستخدمت السلطات الأهلية أساليب كثيرة لاستمالة الناس نحو المدرسة تتراوح بين الإغراء باللباس والغذاء والتسجيل بالعنف واختطاف الأطفال أحيانا.

أخيرا تجلت المقاومة الرمزية في شكل نفسي لم تستطع العقلية الفرنسية فهمه وهو عدم إبداء أية رغبة في الاقتناع بالمشاريع الفرنسية تهييئية كانت أم تنموية أم خدماتية، وذلك بإظهار خمول وتكاسل لم يكن سوى تعبير عن الإحباط الذي مس نفسية المنهزم وزعزعها في عمقها. وقد انزعج الفرنسيون لهذا السلوك أكثر من انزعاجهم للمقاومة المسلحة، وأبدوا يأسا في تحضير بدائية هؤلاء الذين يتصرفون كأن الأبدية أمامهم، بتعبير أحد المسؤولين الفرنسيين.

ولم يكن رد فعل السلطات، والمتعاونين والقايد بالخصوص، سوى عنفا ساديا مشهودا، لم تستطع الساكنة فهمه وهضمه واستساغته، وبذلك انقطع التواصل بين جلاد غالب يريد زرع مشروعه بالعنف، وسجين مغلوب كان ذات يوم حرا ومقاتلا لم يفهم ولم يمكن له أن يفهم الفاجعة إلا في إطار التسليم بالقضاء والرفض العميق للعنت.

تلك كانت آليات الهيمنة وتلك كانت آليات المقاومة، فهل يمكن أن نتحدث في غريس عن ميلاد فئة جديدة هجينة وخلاسية من زواج غير شرعي بين الاستعمار والواحة؟ هل يمكن أن نتحدث عن فئة خنثى، ليست ذكرا ولا أنثى، مثلية أو سحاقية كما انتبه إلى ذلك بيير بورديو في كتابه، الهيمنة الذكورية ؟[1] هل يمكن أن نتحدث عن «حركيين» واحيين ؟ وهل يمكن أن يتواجد ب الواحة أشخاص ممزقين بجذور إسلامية-عربية-أمازيغية- مغربية وبتوجهات استعمارية كما كان الأمر لدى قدماء الضباط المسلمين في الجيش الفرنسي (سعيد كنون[2] وبلمدني[3] كنماذج) ؟ ثم هل يمكن أن نتحدث عن تشرب للغلبة من طرف المغلوب ومحاولة إنتاج ثقافة تبريرية من قبيل الأساطير الإفريقية المفسرة لغلبة الأبيض؟ أم أن هناك إمكانية استطاعة المغلوب أن يفرض بعض تقاليده وثقافته على الغالب حتى لتبدو الأدوار معكوسة كما كان الأمر في علاقة الملوك الأمازيغ مع الرومان أو مع الأوروبيين البيض وعلاقتهم مع الهنود في أمريكا؟[4] ثم ماذا وقع في غريس أثناء نفي الملك الشرعي محمد الخامس؟

لم يحصل أي شيء من كل ذلك في غريس، رغم بعض الإستثناءات التي تؤكد القاعدة، بعض التوقيعات الموالية لنفي الملك الشرعي، بعض الكوميين الممزقين قيما وتوجهات. ليس لتميز غريسي غير معهود، لأنه وببساطة لم تنشأ هناك مستعمرات في غريس ولم يحصل هناك فائض مادي ولا ديمغرافي حتى يتم بعض التفاعل الثقافي بين الغالب والمغلوب.

لقد كان الوجود الاستعماري في غريس مقتصرا على السلطة بمعناها الضيق، وحتى القطاعات غير السلطوية (المدرسة، الصحة، التجهيز...) كانت تتبدى بشكل سلطوي تنفيذي لا يقاوم.

1- Bourdieu, P. *La domination masculine*, Seuil, 1998, P P, 121 - 137
2- Lafon, M. Regards croisés sur le Capitaine Said Guennoun. in, *Etudes et Documents Berbères*, N°,9, La Boite à Documents / Edisud. pp, 93 - 120. 1992.
3- Colonel Bel Madani. *Coupable de fidèlité. Heurs et Malheurs de l'amitié franco-marocaine*. Nouvelles éditions latines. Paris. 1990.
4- Balandier, G. *Sens et puissance*. P U F, 1981, pp, 151 - 202.

لقد تشبث المحليون بالإنفصال التام، وربما رجع ذلك إلى العزلة وقصر المدة الزمنية ومقاومة حضارة الكتاب. إلا أن كل هذا لا ينفي الخيانات وفئة المستفيدين من اللحظة كما هو الأمر في كل لقاء من هذا القبيل.

لقد استطاع الاستعمار أن يشوش على الذات تصورها لنفسها، كما استطاع أن يغرس فيها منطلقات تدميرها لنفسها والإستهانة بقوتها ومن ثمة حملها لتصورها البئيس حول ذاتها.

لقد استبدل رموزا بأخرى وآليات بأخرى، وأدخل مفاهيم جديدة مثل الترشيد والنظام والنظافة والعقلنة، لكنه بتنضيده لجماعة فوق أخرى صنع، وبشكل قوي، الشكل الإستبدادي للقوة والسلطة، فدمر بذلك كل شيء.

معجم المصطلحات المحلية

أتيخسي : هي الذبيحة، شكل من أشكال الحماية

أحرر : الإعفاء من الكلف، وغالبا ما تعني الشرفاء والمرابطين

أخام : الأسرة

إخس : الوحدة المورفولوجية الأوسع من العائلة والأضيق من القبيلة

أزرف: العرف الأمازيغي

أزغار : السهل وما وراء الجبال بالنسبة للواحي

إغرم : أو القصر، هو الوحدة السكنية المركزية في الواحات قبل الاستعمار ...

السيبا : هي مرحلة ماقبل الاستعمار بصفة العموم في التمثل المحلي، لكن مع تمثلات إثنية متضاربة، فهي غالبا إيجابية عند البدو، وتعني لديهم عدم دفع الضرائب للمخزن، لكنها سلبية عند المستقرين نظرا لنظام الحماية الممارس عليهم من طرف البدو، إرجع لرسالتنا في دبلوم الدراسات العليا حول غريس المنشورة بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية سنة 2005.

أقبيل: قبيلة عظمى، وليست لفا

أكدال: المرعى المحروس

أكرام: الولي أو الصالح

ألمسي: الأسرة النووية

أمحارس: شكل من أشكال التبني عند زيان، ويتم بتعاقد بين أرملة وشخص مستعد لخدمتها ومساعدتها

أمزال: شكل من أشكال الرفقة بين جنسين عند زيان أيضا

أمزوار: الشخص الميمون والذي به تبدأ الجماعة أشغالها، ولا تشترط فيه الولاية، هو نوع من البركة اللائكية إن صح التعبير، وهو مصطلح يمكننا من إعادة النظر في براديكم الولاية... كما يعني النقيب

أمغار: زعيم القبيلة المنتخب

إمكلا : المقسمون

أمور: أمساي: أحميل: الضامن لتنفيذ الأحكام العرفية

أيت المجلس: الأعيان الذين تعينهم السلطات الكولونيالية للبث في المنازعات والقضايا الجنحية، وذلك تحييدا لدور لجماعت التقليدية

أيت ربعين: هم العصبة الأكثر قربا من الشخص، وهم من يتحمل المسؤولية الجماعية الجنائية في حالة القتل

أيت عشرة : هم العصبة الأكثر قربا من الشخص، وهم من يتحمل المسؤولية الجماعية في الإخس، مالم تكن جنائية

البرطيزا : جيش المتعاونين

الترتيب : الضريبة المخزنية

الجراي : مساعد الأمغار

الجياشة : قطاع الطرق

الحراطين: الإثنيات السوداء المشتغلة بالزراعة خماسة

الحرمات : أسر الشرفاء والمرابطين

الحماية والعناية والزطاطة وتايسا : أوفاق يحمي بها البدو المستقرين، أويحمي بها الولي البدو والمستقرين على حد سواء، وقد تكون مؤقتة مثل الزطاطة التي تصلح لحماية التجار والمسافرين، كما يمكن أن تكون دائمة مثل حالة تايسا... ... إرجع لرسالتنا في الدبلوم ...

الخرارجي : الخوارجي، الكاغد المزور وغير السني

الخطارة : ساقية تحت الأرض، تتكون من مياه مجموعة أبار متسلسلة على شكل منحنى نحوى الحقول، وهي تقنية جد معقدة لا يتقنها سوى بعض معلمين واحيين اكتسبوها عبر القرون

الخماسة: شكل من أشكال تنظيم الشغل، يأخذ فيه المالك أربعة أخماس المحصول، ولا يأخذ الخماس سوى الخمس فحسب، وغالبا ما يكون الخماس من إثنية سوداء، حرطاني، وهو تقسيم تقليدي أملته ألإيكولوجيا والتاريخ. كما أنه ليس صنفا واحدا، بل له تلوينات تابعة للتعاقد العرفي، وقد حير أمره الفقهاء، فهو ليس شركة كما ليس إجارة، ويقربه بعض المفتين من الغراسة التي مارسها الرسول (ص)... إرجع لرسالتنا في الدبلوم ...

الرقاص: ساعي البريد التقليدي

الروكي: الفتان: المتعاون مع الاستعمار وقد يعني المتمرد والخارج عن البيعة

الشان: الجاه والمكانة الإجتماعية

الشانطي: أصلا كل محل شغل، ثم امتد إلى الطريق المعبدة، وأصبح لا يعني سواها.

العادة والميعاد وّ القانونّ: أنواع من العرف عند القبايل في الجزائر

العار: اللعنة التي تصيب المتنازل عن الكلف العرفية الكبرى

الغولة: المدرعة

الفيلاج: هي المدينة الكولونيالية الجديدة

الكورفي: العمل المجاني المفروض

الكوم: القوم: فيلق المغاربة في الجيش الكولونيالي

اللف: اتحاد مجموع قبائل

المعين: المساعد الرسمي للأمغار

المهبولة: المدفع الرشاش

النزالة: محطة استراحة الموكب المخزني

برمسيون: الإجازة

بوجور و كاردافو: أشكال التحية الكولونيالية المفروضة على الأنديجين

تاضا : عهد أخوة

تافركانت: عهد أخوة عند أيت عطا ...

تاكلا: المحمي المستضعف، وهو إسم تحقير

تعقيط : الأزرف المدون

تقبيلت : القبيلة

تموزغا: تعني حرفيا، النبل

توكورت: وحدة قياس الأرض والماء

حد الصايم: توزيع العمل حسب البلوغ والقدرة على الصوم

سيباصي: رخصة المرور

شامبيط: الحارس اليومي لأزقة الفيلاج

شومور : من لاشغل قار له

عوام : الجهاد العام وغير المنظم، ويكون إثر فزعة، وتعني الهجوم المباغث

لاطاش والسربيس: أشكال تنظيمية للشغل

لسان: إلس: فيلق تقريبا.

فهرس

يهدف هذا العمل إلى وضع الأصبع على تحولات واحة غريس وأنواعها وأشكالها، والمجالات التي طالتها والآليات التي استخدمت في ذلك، ثم محاولة إبراز أشكال المقاومة.

وواحة غريس عبارة عن مختبر صغير، يمكن أن يضيء بعض خبايا صدمة البنيات التقليدية بالاستعمار وشعاراته، من عصرنة وعقلنة وترشيد.

أما راهنية الموضوع فيمكن تلمسها في عودة الإشكاليات البي- إثنية، وتحديات العولمة وصراع الثقافات، والمشاكل الاجتماعية والهوياتية التي تترتب عن الهجرة والبعد الإكوثقافي للتحولات الاجتماعية.

ⵉⵥⵚⴰ ⵡⴰⵙⵉⵀ ⵏ ⵖⵔⵉⵙ, ⴳ ⵓⵣⵎⵣ ⵏ ⵓⵙⴷⴷⵓⵔⵉ ⴰⵀⵚⴰⵏⵟⵉⵟ, ⵜⵓⴳⴳⵜ ⵏ ⵉⵙⵏⵀⵃⵍ. ⵜⵡⴰⵜⵙ ⵜⵡⵓⵔⵉ ⴰ ⴰⴷ ⴷ ⵜⵙⴰⴳⴳⵯ ⴽⵔⴰ ⴳ ⵡⵓⴷⵎⴰⵡⵏ ⵍⵙⵏ, ⴷ ⵉⵙⵓⵢⴰⵙ ⵍⴰ ⴳ ⵃⵃⴰⵏ, ⴷ ⵜⵎⵏⵜⵉⵃⵉⵏ ⵍⴰ ⵜⵏ ⴷ ⵢⵉⵡⵉⵏ, ⵙⵓⵃ ⴷ ⴽⵔⴰ ⴳ ⵉⵎⴰⵙⵙⵏ ⵏ ⵜⵏⵣⴱⴰⵢⵜ ⵍⴰ ⵉⵜⵜⵓⴳⴳⴰⵏ ⵎⵏⵉⴷ ⵍⵙⵏ.

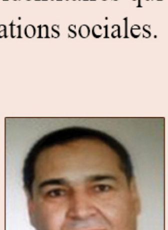
ⵉⴳⴰ ⵖⵔⵉⵙ ⴳ ⵜⵡⵓⵔⵉ ⴰ ⵢⴰⵏ ⵓⵙⴰⵔⵎ ⵎⵥⵥⵉⵢⵏ ⵍⴰ ⵉⵖⵉⵏ ⴰⴷ ⵉⵎⵃ ⴰⴷⵔⵉⵣ ⵏ ⵓⵙⴷⴷⵓⵔⵉ ⴷ ⵜⵎⴰⵜⴰⵔⵉⵏ ⵍⴰ ⴷ ⵉⵎⴰⵏ ⴳⵀ ⵜⵓⵟⴽⵉⵡⵉⵏ ⵜⵉⴹⴱⵓⵔⵉⵏ.

ⵉⴳⴰ ⵓⵙⵏⵜⵃ ⴰ ⵍⴰ ⵏⵙⵜⵉ ⴳ ⵜⵡⵓⵔⵉ ⴰ ⴰⵎⵉⵔⴰⵏ ⴰⴼⴽⵓ ⴳⴳⵓⵔⴰⵏⵜ ⴷ ⴽⵔⴰ ⵏ ⵜⵎⵓⴽⵔⵉⵙⵉⵏ ⵉⵎⵎⴰⵃⵍ ⴰⵜⵉⴳ ⵍⵙ, ⵣⵓⵏ ⴷ ⵉⵖⵏⴰⵏ ⵏⴳⵔ ⵜⵉⵜⵏⵉⵢⵉⵏ, ⴷ ⵉⵏⴰⵥⴰⵚⵏ ⵏ ⵜⵙⵎⴰⵄⴰⵃⵜ ⴷ ⵉⵎⵏⵣⴰⵖⵏ ⵉⴷⵃⵙⴰⵍⵍ, ⵏⵙⵎⴷ ⵉ ⵓⵢⴰ ⵉⵎⵓⴽⵔⵉⵙⵏ ⵉⵏⴰⵎⵓⵍⵍ ⴷ ⵡⵉⴷ ⵉⵣⴷⵉⵏ ⴷ ⵜⵎⴰⴳⵉⵜ ⵍⴰ ⴷ ⵜⵙⵃⵓⵃⴰ ⵜⵎⵣⵣⵉⵜ, ⵙⵃⵃⴰⵖ ⵏⵜⵜⵓ ⵓⴳⴳⵓⴳ ⴰⵏⵎⵏⴰⵄ ⴷ ⵓⴷⵃⵙⴰⵏ ⵏ ⵉⵙⵏⵀⵃⵍ ⵉⵏⴰⵎⵓⵍⵍ.

Durant la période coloniale, l’oasis de Ghris a connu diverses transformations. Le présent ouvrage met en évidence les différents aspects de ce grand bouleversement oasien et les espaces qui ont le plus été marqués par cette mutation. Il s’agit également de tirer au clair les facteurs du changement et les formes de résistance à ce dernier.

Ghris est pris, ici, comme un laboratoire qui donne un aperçu de l’impact qu’ont eu le choc colonial et ses slogans (modernisation et rationalisation) sur les structures traditionnelles.

L’actualité du sujet réside dans le retour des conflits interethniques, des enjeux liés à la mondialisation et aux chocs culturels ainsi qu’aux problèmes sociaux et identitaires qui découlent de l’émigration et de la dimension éco-culturelle des transformations sociales.



بن محمد قسطاني، أستاذ التعليم العالي للسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس.
مهتم بسوسيولوجيا الواحات، والمعرفة الاجتماعية وابستمولوجيا العلوم الإنسانية. أصدر عدة أبحاث ومقالات في مجلات محكمة وكتب جماعية.